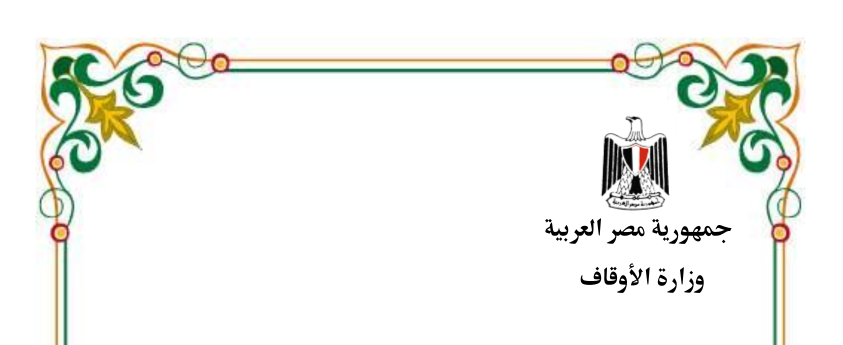


جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

العقل والنص

إعـداد

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص : ٢٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم، أول شافع وأول مشفَّع ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

وبعـد :

فإن كثيرًا من الإشكاليات الفكرية نشأت عن غلبة مناهج الحفظ والتلقين على مناهج الفهم والمناقشة والتحليل ؛ حيث تصدرت قضايا الأحكام الجزئية المناهج التعليمية والبحثية ، على حساب الاهتمام بالقواعد الكلية – الفقهية والأصولية – ومناهج التفكير العقلي والمنطقي ، مما جعلنا نؤكد ونلح في التناول والتأكيد على أنه لا غنى عن إعمال العقل في فهم صحيح النص وفي تطبيقاته ، وفي إنزال الحكم الشرعي على

مناطه من الواقع العملي ، وأنه لا بد من إعادة قراءة النص في ضوء مستجدات العصر ومعطيات ومتطلبات ما يقتضيه فقه بناء الدول ، فتناول القضايا الفقهية والشرعية يحتاج إلى تأهيل خاص ، وإعداد علمي وشرعي ولغوي مبكر ، يسهم في صنع وصقل موهبة الفقيه والمفتي ، مما يتطلب التحصن بأدوات كثيرة، في مقدمتها : دراسة العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم ؛ إذ لا يمكن أن تُطلَق على إنسان صفة فقيهٍ أو مفتٍ وهو لا يعرف الناسخ من المنسوخ ، ولا المطلق من المقيد ، ولا المجمل من المفصَّل ، ولا المحكم من المتشابه ، ولا العلاقة بين اللفظ والسبب ، أو العموم والخصوص ، ودقائق وأسرار هذه المصطلحات .

كما ينبغي أن يكون الفقيه عالمـًا بسنة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودرجة الحكم على الأحاديث ومراتبها ، وما ينبغي أن يُقدَّم من الترجيح أو التوفيق عند تعارض ظواهر

بعض ألفاظها ، فكيف بمن لا يميز بين الثابت والمتغير، أو سنن العبادات من أعمال العادات؟!

وينبغي على الفقيه - أيضًا- الإلمام بأحوال عصره ، وواقع الناس وعاداتهم وتقاليدهم ، وقوانين الدول ودساتيرها ، والمواثيق والعهود الدولية ومتطلباتها ، ليكون قادرًا على إنزال الفتوى على مظانها وظروف عصرها لا على مظان وظروف عصور أخرى تغير بعدها الحال والزمان ودنيا الناس.

وينبغي أن يتسع أفقنا لفهم النصوص وإسقاطها على الواقع ، فعندما نتحدث عن الصدق ونطلب من الأفراد التحلي به فإننا نطلب – أيضًا – من الدول أن تتحلى به ، فالدول الصادقة هي التي تفي بعهودها ومواثيقها والتزاماتها الدولية، أما الدول التي لا تفي بعهود ولا مواثيق ، ولا تقيم شأنًا للقيم والأخلاق فمآلها السقوط والاندثار ، يقول أحمد شوقي :

إنمـا الأمـم الأخـلاق مـا بقيـت
فإن هـم ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا

وعندما نتحدث عن حق الجوار فإننا يجب ألا ننسى حق الجوار الدُّوَلي ، فكما أن الإنسان الشريف لا يؤذي جاره ، ولا يسمح أن يُؤْذَى جاره من قِبَله ، فكذلك الدول العظيمة تحترم حق الجوار ولا تسمح بأن تؤتى جاراتها عبر حدودها ، أو أن تكون هي طريقًا لتسرب المتطرفين إلى أي منها.

وعندما نتحدث عن آداب الاستئذان ينبغي أن ننظر إليه بصفة أعمّ من الاستئذان لدخول منزل شخص ما فحسب ، فحرمة الدول كحرمة البيوت وأشد ، وكما لا يجوز أن تَدْخُلَ بيت أحد إلا بإذنه ، فإنه لا يجوز أن تدخل دولة دون الإذن القانوني المعتبر لدخولها .

وعندما نتحدث عن القصد في المشي حيث يقول الحق سبحانه : " وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " ، فإننا نعني القصد في المشي وعدم الاختيال مطلقًا ، سواء أكان الإنسان ماشيًا على قدميه أم

مستقلًّا دراجته أم راكبًا سيارته ، بل إن الاختيال بالسيارة أشد جرمًا من الاختيال بالمشي على القدمين ؛ لما في الثاني من كسر نفوس الفقراء ، وأسوأ من ذلك أن يصل الاستعلاء بالنفس إلى تجاوز قواعد السير ، وقوانين المرور التي تنظم عملية السير في الطريق حفاظًا على الأنفس والأموال وسلاسة الحركة .

فالغاية والمقصد إنما هو النهي عن التكبر على خلق الله والاستعلاء عليهم بأي نوع من أنواع الاستعلاء ، والمشي في الآية هنا ليس مقصودًا به المشي على القدمين فقط ، وإنما المقصود به النهي عن مطلق الاختيال والعجب والغرور بالنفس ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا " .

وهكذا نُعمل العقل في فهم مقاصد النص ، بما ييسر للناس أمور حياتهم ، وتنصلح به أحوال معاشهم ومعادهم ، مع

الحفاظ على ثوابت الشرع الشريف ، وعدم المساس بها ، والتفرقة بوضوح بين المقدس وغير المقدس ، وبين الثابت والمتغير ، فإنزال الثابت منزلة المتغير هدم للثوابت ، وإنزال المتغير منزلة الثابت عين الجمود والتحجر والتخلف عن ركب الحضارة والإنسانية .

ونعرض في هذا الكتاب عددًا من الموضوعات والقضايا الهامة مثل : الضيق والسعة بين العلماء والجهلاء ، والبصيرة في الدعوة والفتوى ، وحق الجوار الدولي ، وصناعة الوعي، وأسباب رفع البلاء ، وأبجديات الحوار ، وغيرها .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ،،،

أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

دور العقل في فهم النص

لا غِنى عن إعمال العقل في فهم صحيح النص وفي تطبيقاته ، وفي إنزال الحكم الشرعي على مناطه من الواقع العملي، كما أنه لا بد من إعادة قراءة النص في ضوء مستجدات العصر .

ولنأخذ أنموذجين لكي يتضح ما نرمي إليه:

الأنموذج الأول : التوكل على الله ، ومن ذلك قول النبي (صلى الله عليه وسلم) للأعرابي الذي سأله عن ناقته : أعْقِلُها وأتوَكَّلُ أو أطلِقُها وأتوَكَّلُ ؟ فقالَ (صلى الله عليه وسلم) : "اعقِلها وتوَكَّلْ"(١) ، على أن التوازن بين الأخذ بالأسباب

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الحَوْضِ ، بعد تسعة وثلاثين بابًا منه ، حديث رقم ٢٥١٧ .

والتسليم بقضاء الله وقدره لا يقف عند حدود عقل الناقة مع حسن التوكل ؛ إنما يشمل كل جوانب الحياة ، فعلى الطالب أن يجتهد في مذاكرته ثم يحسن التوكل على الله (عز وجل) في أمر نتيجته ، وعلى الزارع أن يأخذ بأسباب العلم في زراعته ويحسن القيام عليها ثم يحسن التوكل على الله في نتاجها .

وفي ظروفنا الآنية في مواجهة فيروس كورونا نقول : ارتد الكمامة وتوكّل ، نظف يديك وتوكّل ، تجنب المصافحة وتوكّل، حقق التباعد الاجتماعي وتوكّل ، خذ بجميع الأمور الاحترازية والإجراءات العلمية والطبية وتوكّل ، وهكذا في سائر الأمور الحياتية ، وبهذا نكون قد فهمنا وحققنا وطبقنا معنى قول نبينا (صلى الله عليه وسلم) "اعقلها وتوكّل" .

الأنموذج الثاني : القصد في المشي ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان لقمان (عليه السلام) في وصيته لابنه

" يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ الله لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " (١).

فالقصد في المشي هو الاعتدال وعدم الخيلاء فيه ، وذلك لا يقف عند حدود الماشي على قدميه ، إنما يعني القصد في المشي وعدم الاختيال مطلقًا ، سواء أكان الإنسان ماشيًا على قدميه أم مستقلا دراجته أم راكبًا سيارته ، بل إن الاختيال بالسيارة أشد جرمًا من الاختيال بالمشي على القدمين ؛ لما في الثاني من كسر نفوس الفقراء ، وأسوأ ما في ذلك أن يصل الاستعلاء بالنفس إلى تجاوز القوانين المنظمة للمرور والسير ، مع أن الالتزام

(١) لقمان :١٧-١٩ .

بقواعد المرور العامة إنما هو للحفاظ على حياتك وحياة الآخرين مما يتطلب أن تلتزم بالسرعات المقررة وبإشارات المرور وتعليماته وبآدابه وأحكامه دون أن يستعلي أحد على الآخرين بسيارته الفارهة أو بدراجته الأحدث .

والحق سبحانه وتعالى يقول :" وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا " [(١)] ، فالغاية والمقصد إنما هو النهي عن التكبر على خلق الله والاستعلاء عليهم بأي نوع من أنواع الاستعلاء ، والمشي في الآية هنا ليس مقصودًا به المشي على القدمين فقط ، وإنما المقصود به النهي عن مطلق الاختيال والعجب والغرور بالنفس ، وقد سئل أحدهم: ما السيئة التي لا تنفع معها حسنة؟ فقال : الكبر .

(١) الإسراء: ٣٧ .

يقول الشاعر [1]:

ولا تمشِ فوق الأرضِ إلَّا تواضعًا فكم تحتها قومٌ هم منك أرفعُ

فإن كنتَ في عزٍّ وخيرٍ ومنعةٍ فكم مات مِن قومٍ هم منك أمنعُ

وختامًا نؤكد على أهمية فهم مرامي النصوص ومقاصدها، ونحذر من المتحجرين الذين يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزن الظاهر الحرفي لها ، فيقعون في العنت والمشقة على أنفسهم وعلى من يحاولون حملهم على هذا الفهم المتحجر .

* * *

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ). المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد .ط : دار الكتب العلمية - بيروت (ص:٦١) . قال: أنشدني الكريزي ، وهو: الشاعر منصور بن محمد الكريزي شاعر عباسي، وله جملة قصائد ومقطوعات نقلها عنه معاصره مؤلف «روضة العقلاء».

الضيق والسعة
بين العلماء والجهلاء

لعل أهم فارق بين العلماء والجهلاء هو مدى فهم هؤلاء وأولئك لقضايا الحل والحرمة ، والضيق والسعة ، فالعالم يدرك أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة ، وأن التحريم والمنع هو استثناء من الأصل ، يقول الحق سبحانه: " قل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "[1]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَحَّدَ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا

(١) الأنعام: ١٤٥.

عَنْهَا"[1]، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَا أَحَلَّ الله فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ الله عَافِيَتَهُ {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}[2]" [3] .

فالجهلاء يجعلون الأصل في كل شيء التحريم والمنع ، ويطلقون مصطلحات التحريم ، والتفسيق ، والتبديع ، والتكفير دون وعي ، غير مدركين ما يترتب على ذلك من آثار، وغير مفرقين بين التحريم والكراهية ، ولا حتى ما هو خلاف الأولى ، فصعبوا على الناس حياتهم ، ونفروهم من دين الله (عز وجل) وهو ما حذر منه نبينا (صلى الله عليه وسلم) ؛ حيث يقول: "بشروا ولا تنفروا فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ، وَلَمْ

(١) سنن الدارقطني ، كِتَابُ الرَّضَاعِ ، حديث رقم ٤٣٩٦ .

(٢) مريم: ٦٤ .

(٣) مسند الشاميين للطبراني ج ٣ / ص ٢٠٩ ، حديث رقم ٢١٠٢.

تُبْعَثُـوا مُعَسِّرِينَ"[1] ، وقوله لسيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) عندما شكا إليه (صلى الله عليه وسلم) بعض الناس أنه يطيل بهم الصلاة : " يا مُعاذُ، أفتَّانٌ أنت؟ " [2].

أما الفريق الآخر وهم العلماء فقد أدركوا بما لا يدع أي مجال للشك أو الارتياب أو حتى الجدل أن الأديان إنما جاءت لسعادة الناس لا لشقائهم ، حيث يقول الحق سبحانه : " طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى" [3]، ويقول : " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ" [4] ، ويقول سبحانه : " يُرِيـدُ الله

(١) صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، بَابُ صَبِّ المَاءِ عَلَى البَوْلِ فِي المَسْجِدِ ، حديث رقم ٢٢٠ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الآذان ، بَابُ مَنْ شَكَا إِمَامَهُ إِذَا طَوَّلَ ، حديث رقم ٧٠٥ ، وصحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي الْعِشَاءِ ، حديث رقم ٤٦٥ .

(٣) طه : ١ ، ٢ .

(٤) الحج : ٧٨ .

بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" [1].

وفقهوا أن الفقه رخصة من ثقة ، وأن الفقه هو التيسير بدليل ، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) ما خُيِّرَ بين أمرين إلَّا أخذ أيسرَهما ، ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد النَّاس منه[2]، فأخذوا الناس إلى طريق الشريعة السمحاء النقية التي لا تنال منها المطامع ولا الأهواء ولا التوظيف الأيديولوجي ، مع تأكيدنا أن هذا التيسير الذي نريده شيء وأن التسيب والانفلات شيء آخر ، فالتيسير الذي نريده هو التيسير

---

(1) البقرة : ١٨٥ .

(٢) أصله حديث عائشة في صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، بَابُ مُبَاعَدَتِهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِلْآثَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمُبَاحِ، أَسْهَلَهُ وَانْتِقَامِهِ لله عِنْدَ انْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ، حديث رقم ٢٣٢٧. ولفظه: عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله (عَزَّ وَجَلَّ)».

المنضبط بضوابط الشرع ، لا ذلكم التسيب المبني على الهوى .

فتحت مسمى الالتزام والأحوط والاحتياط فتحت أبواب التشدد التي ساقت وجرفت الكثيرين في طريق التطرف ، حتى ظن الجاهلون أن التحوط في التدين يقتضي الأخذ بالأشد ، وأن من يتشدد أكثر هو الأكثر تدينًا وخوفًا من الله (عز وجل) ، وتحت مسمى التيسير فتحت بعض أبواب الخروج عن الجادة ، وديننا يريدها وسطية سوية ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فلا إفراط ولا تفريط .

❊ ❊ ❊

البصيرة في الدعوة والفتوى

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ "(١)، والبصيرة تعني العلم والدراية والرؤية والبينة ، وقد حذر نبينا (صلى الله عليه وسلم) من التجرؤ على الفتوى ، أو على القول في دين الله (عز وجل) بغير علم ولا بينة ولا بصيرة ، فقال لمن أفتوا الرجل بدون علم فاغتسل على جرحه فمات : "قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله ، أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جَرْحِهِ ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهِ وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ "(٢).

---

(١) يوسف : ١٠٨ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب في المجروح يتيمم ، حديث رقم ٣٣٦.

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " أجرؤكم على الفُتيا أجرؤكم على النار" [1] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّ الله لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[2]، وكان أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) يُسألون فيحيل الواحد منهم إلى الذي يليه ، حتى يرجع السؤال للأول مرة ثانية ، إذ كانوا يستشعرون عظم أمر الفتوى .

فشأن الإفتاء عظيم ، وأمره جلل ؛ إذ ينبغي للمفتي أن يكون

---

(١) سنن الدارمي ، المقدمة ، بَابُ الْفُتْيَا وَمَا فِيهِ مِنَ الشِّدَّةِ ، حديث رقم ١٥٩ ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا، أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ» وإسناده معضل ، فعبيد الله بن أبي جعفر لا يعرف له رواية عن الصحابة .

(٢)صحيح البخاري ،كتاب العلم ، بَابٌ: كَيْفَ يُقْبَضُ العِلْمُ ، حديث رقم ١٠٠ .

عالمًا بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وأن يكون عارفًا بمسائل الإجماع ، عالمًا بلسان العرب ، عالمًا بعلم أصول الفقه، عارفًا بالناسخ والمنسوخ ، وفقه الأولويات ، وفقه الواقع وأحوال الناس وأعرافهم.

غير أن هناك أناسًا لا علم لهم ولا فقه ، ولا هُمْ من المجتهدين ولا حتى من أهل الاختصاص ، أو دارسي العلوم الشرعية من مظانها المعتبرة يسرعون في رمي المجتمع بالتبديع، ثم التجهيل، فالتكفير، حتى وصل الأمر بغلاتهم إلى التفجير واستباحة الدماء ؛ مما يتطلب حركة سريعة وقوية وغير هيّابة لمواجهة الجمود والفكر المتطرف معًا ، حتى نُخلِّص المجتمع والإنسانية من خطر التطرف الفكري وما يتبعه من تبني الإرهاب منهجًا وسلوكًا.

أما في مجال الدعوة فإن البصيرة تقتضي الحكمة والموعظة الحسنة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (1).

وهو ما علمنا إياه نبينا (صلى الله عليه وسلم) في دعوته التطبيقية ، فعن معاوية بن الحكم السلمي قال : بيْنَا أَنَا أُصَلِّي مع رَسولِ الله (صَلَّى الله عليه وسلَّمَ) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، فَوَالله ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي ، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ"(2).

---

(1) النحل : ١٢٥ .

(2) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، بَابُ تَحْرِيمِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ، وَنَسْخِ مَا كَانَ مِنْ إِبَاحَتِهِ ، حديث رقم ٥٣٧ .

فما أحوجنا إلى التأدب بأدب الإسلام في الفتوى بعدم الجرأة عليها بدون علم ، ولا تأهل ، ولا اختصاص ، وفي الدعوة بأن تكون دائمًا بالحكمة والموعظة الحسنة ، فدور العلماء هو البلاغ لا الهداية والحساب ، فأمرهما إلى الله وحده.

والفتوى أمانة ثقيلة تحتاج إلى تأهيل خاص وإعداد علمي شرعي ولغوي مبكر ، يسهم في صنع وصقل موهبة الفقيه والمفتي ، وليس مجرد هواية أو ثقافة عامة ، ولا كلأ مباحًا لغير المؤهلين ، وإذا كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : "..إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ" [1]، فأي خطر أشد من إقحام غير المؤهلين وغير المتخصصين لأنفسهم في مجال الإفتاء أو السماح لهم بذلك ؟!

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، بَابُ مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغِلٌ فِي حَدِيثِهِ، فَأَتَمَّ الحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ ، حديث ٥٩ .

وإذا كانت الحكمة تقتضي وضع كل شيء في موضعه ، ووصفه بما يناسبه لا بوصف غيره ، فإن إطلاق كلمة الفقيه أو المفتي على من هو غير جدير بها يُشَكِّل خطرًا جسيمًا على الأمن الفكري للدول والمجتمعات ، فكلٌّ من الفقه والفتوى صناعة ثقيلة تتطلب أدواتٍ كثيرة ، في مقدمتها: دراسة العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم ، وبخاصة التفسير وعلوم القرآن ؛ إذ لا يمكن أن تُطلق على إنسان صفة فقيه أو مفتٍ وهو لا يعرف الناسخ من المنسوخ ، ولا المطلق من المقيد ، ولا المجمل من المفصَّل ، ولا المحكم من المتشابه ، ولا العلاقة بين اللفظ والسبب.

كما ينبغي أن يكون الفقيه عالمًا بسنة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودرجة الحكم على الحديث، وماذا ينبغي أن يصنع من الترجيح أو التوفيق عند تعارض ظاهر بعض الألفاظ ، فكيف إذا كان لا يميز بين الثابت والمتغير، وبين سنن العبادات وأعمال العادات؟!

ولا بد للفقيه من إتقان علوم اللغة العربية ، فلا فهمَ صحيحًا للكتاب والسنة إلا بالبراعة فيها ، ولا غنى له أيضًا عن علم أصول الفقه ، ومعرفة الأدلة المتفق عليها ، والأدلة المختلف فيها ، وآراء الأصوليين والفقهاء في كل دليل من الأدلة المختلف فيها ، وطرق الاستنباط منها.

كما أنه لا يمكن للفقيه أن يصقل مواهبه دون دراسة دقيقة لآراء الفقهاء المتقدمين من الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، وأصحاب المذاهب الأربعة : الإمام أبي حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام الشافعي ، والإمام أحمد ، وكبار فقهاء المذاهب.

* * *

رسالـة العلمـاء

رسالة العلماء عظيمة عظم الأمانة التي يحملونها، وهي أمانة العلم ، وأمانة الدعوة ، وأمانة التبليغ ، أما من حيث الأمانة في التبليغ فيقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ " ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لله ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ "[1]، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ "[2].

---

(١) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ الْعِلْمِ ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الحَثِّ عَلَى تَبْلِيغِ السَّمَاعِ ، حديث رقم ٢٦٥٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، حديث ٣٤٦١ .

وأما من حيث إخلاص النية لله (عز وجل) في أداء الرسالة فيقول الحق سبحانه : "وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [1]، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ ، وَلَا تُمَاروا به السفهاء ، ولا تخَيَّروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار"[2]، ويقولون : من تعلم العلم ثم عمل بما تعلمه ثم علم الناس فذلك يدعى عظيمًا في الملكوت والسماوات.

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء فعليهم أن يدركوا طبيعة المهمة التي اصطفاهم الله (عز وجل) لها ، وأنها ليست مهمة تكسب بالعلم أو بالدعوة ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم): " قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ

(١) البقرة : ٢٨٢ .

(٢) صحيح ابن حبان ، كِتَابُ الْعِلْمِ ، ذِكْرُ وَصْفِ الْعِلْمِ الَّذِي يُتَوَقَّعُ دُخُولُ النَّارِ فِي الْقِيَامَةِ لِمَنْ طَلَبَهُ ، حديث رقم ٧٧ .

لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الله وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"[1]، ويقول سبحانه على لسانه (صلى الله عليه وسلم) : "قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا"[2]، ويقول سبحانه على لسان أنبيائه : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب (عليهم السلام) : " وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ" [3]، بصيغة واحدة تؤكد وحدة الهدف والمنهج وصدق النية مع الله (عز وجل) وتمام الإخلاص له سبحانه لدى رسل الله أجمعين.

إضافة إلى أن العالم الحقيقي لا يُمَنِّي الناس ولا يعدهم بشيء من عرض الحياة الدنيا إنما يعدهم رحمة من الله وفضلاً ، حيث يقول الحق سبحانه : " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ

---

(١) سبأ : ٤٧ .

(٢) الفرقان : ٥٧ .

(٣) الشعراء : ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ .

بِالْفَحْشَاءِ وَالله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[1]، ويقول على لسان سيدنا نوح (عليه السلام) : "وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ الله وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْرًا الله أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"[2]، فالرسالات السماوية رسالات سامية لا يمكن لأهلها أن يكونوا تجار دنيا ، أو متاجرين بدين الله (عز وجل) على نحو ما يفعل المتاجرون بالدين والمتكسبون به أفرادًا ، أو جماعات مارقة.

مع تأكيدنا على أمرين :

الأول : التعلم المستمر ، وطلب العلم من المهد إلى اللحد ، فالمحبرة إلى المقبرة .

والآخر: تفهم أن كل ما جاء في إعلاء شأن العلم ، حيث يقول

(١) البقرة : ٢٦٨ .

(٢) هود : ٣١ .

الحق سبحانه:" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ"(١) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "منْ سَلَكَ طَريقًا يَبْتَغِي فِيهِ علْمًا سهَّل الله لَه طَريقًا إِلَى الجنةِ ، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطالب الْعِلْمِ رِضًا بِما يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعالِمِ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ منْ في السَّمَواتِ ومنْ فِي الأرْضِ حتَّى الحِيتانُ في الماءِ ، وفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعابِدِ كَفَضْلِ الْقَمر عَلى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وإِنَّ الْعُلَماءَ وَرَثَةُ الأَنْبياءِ وإِنَّ الأنْبِياءَ لَمْ يُورِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وإِنَّما ورَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وَافِرٍ"(٢)، إنما هو في مطلق العلم وليس العلم الشرعي وحده ، فقد جاءت كلمة "علمًا" في قوله (صلى الله عليه وسلم) :"منْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا" نكرة لإفادة العموم والشمول .

---

(١) النحل : ٤٣ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب العلم ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، حديث رقم ٣٦٤١.

والمراد بالعلم النافع كل ما يحمل نفعًا للناس في شئون دينهم ، وشئون دنياهم ، في العلوم الشرعية أو العربية ، أو علم الطب ، أو الصيدلة ، أو الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو الفلك ، أو الهندسة ، أو الميكانيكا أو الطاقة ، وسائر العلوم والمعارف ، وأرى أن قوله تعالى : "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ"(١)، وقوله تعالى: "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"(٢) أعم من أن نحصر أيًّا منهما أو نقتصره على علم الشريعة وحده ، فالأمر متسع لكل علم نافع ، والمراد بأهل الذكر أهل الاختصاص، كلٌّ في مجاله وميدانه .

* * *

(١) الزمر : ٩ .

(٢) النحل : ٤٣ .

دقائق الأمور

لكل علم أو فن أسراره ودقائقه التي لا يعرفها إلا من يسبر أغواره ، ويحيط بكل جوانبه ودقائقه وأبعاده .

ومن هذه الدقائق العلاقة بين الدين والسياسة ، وبين الدين والوطن .

أما الدين فأمره بَيِّنٌ واضح ، تحكمه علاقة العبد بربه (عز وجل) ، حتى علاقاته بالآخرين والمجتمع والوطن فهي – في المنظور الديني – من باب مرضاة الله (عز وجل) ، فكل ما يؤدي إلى تحقيق صالح البلاد والعباد ، والبناء والتعمير، ومكارم الأخلاق ، فهو من صميم مقاصد الأديان ، أما ما يؤدي إلى الهدم والتخريب وأذى الآخرين فالأديان منه براء .

أما السياسة فعامة وحزبية ، فالعامة تعني إدارة شئون البلاد والعباد والمؤسسات بما يحقق صالح الوطن وأهله ، وأما

السياسة الحزبية فمع كونها أداة ديمقراطية لا غنى عنها لإثراء المشهد السياسي العام ، فإن على مؤسسات الدولة جميعًا – دينية أو غير دينية – أن تنأى بنفسها عن دعم أي حزب على حساب آخر ، أو مرشح انتخابي على حساب آخر .

وأما الجوانب الوطنية فهي تلك القضايا التي لا غنى عنها لبناء وطن ، وتحقيق أمنه وسلامته ، وتقدمه وازدهاره ، وتجنيبه كل ما يعوق مسيرة تقدمه أو ينال منها .

وعندما يتناول الخطاب الديني القضايا الوطنية والاجتماعية إنما يتناولها من منظور إيمانه بها ودعمه لها إعلاءً للمصلحة العامة .

ولا يجادل أحد في أن البعد الاجتماعي أحد أهم مجالات إصلاح المجتمع ، ودليل تحضره ، وعلامة رقيه ، وأحد أسباب تقدمه ، فحين انكفأ الخطاب الديني على نفسه وغاب عن معالجة قضايا المجتمع اتُّهِمَ أصحابُه بالرجعية وأنهم يعيشون

خارج الزمن، فإذا أخذ علماء الدين بزمام المبادرة في أداء واجبهم تجاه المجتمع اتهمهم البعض بخلط الديني بالسياسي .

ونؤكد أن تناول القضايا الوطنية والاجتماعية والمجتمعية لا يعد أبدًا من باب خلط الديني بالسياسي، والعبرة بطريقة الأداء والتناول ، فالجوانب المهنية والفنية هي عمل أهل الاختصاص، أما الجوانب الإصلاحية العامة المتعلقة بالمصالح والمفاسد، واحترام النظام العام للمجتمع، فهي رسالة نبيلة لكل المصلحين من العلماء ، والمفكرين ، والإعلاميين ، فالإصلاح مسئولية مجتمعية مشتركة .

على أننا نؤكد أنه كلما ارتفع المستوى الثقافي وارتفعت درجة الوعي في أي مجتمع من المجتمعات وَضَعَ الأمور في نصابها ، وقاسها بمقاييس دقيقة ، وتكاملت مؤسساته في معالجة قضاياه ، وحل التوافق محل التنازع والتناحر بين أبنائه .

ويجب أن نفرق بين ما يكون الحكم فيه دينيًّا بحتًا ، وما يكون

الحكم فيه مهنيًّا مرجعه إلى أهل الاختصاص ، ويتبع الرأي الديني فيه الرأي المهني التخصصي ، ففي مجال الطب يأتي الرأي الشرعي مبنيًّا على الرأي الطبي ، وفي مجال الهندسة فإن الرأي الشرعي يتبع الرأي الفني الهندسي ، فقواعد العمل وضوابطه هي اختصاص أهل كل فن ، ولكن من خرج على القواعد واللوائح والقوانين فأدى خروجه إلى قتل النفس فهو قاتل ، فإن أضرَّ بحياة الناس فإثمه بقدر الضرر الواقع منه ، فالقاعدة أنه "لا ضرر ولا ضرار" .

على أننا نؤكد أن العلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون ، فإنَّ تديُّنًا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يُسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة ، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح .

الدين والدولة لا يتناقضان ، الدين والدولة يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات ، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين ، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا ، الأديان رحمة ، الأديان سماحة ، الأديان إنسانية ، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج ، والتميز والإتقان ، ويطاردان البطالة والكسل ، والإرهاب والإهمال ، والفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، وإثارة القلاقل والفتن ، والعمالة والخيانة.

ونؤكد أن من يتوهمون صراعًا -لا يجب أن يكون – بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتًما إما أنهم لا يفهمون الأديان فهما صحيحًا أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًا ، فالخلل لا

علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة ، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتهما معًـا.

غير أننا نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها ، وإعلاء دولة القانون ، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة أيًّا كان مصدر هذه السلطات ، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى ، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواء موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة.

* * *

حق الجوار الدولي

حق الجوار حق أصيل في الإسلام ، حيث يقول الحق سبحانه : "وَاعْبُدُواْ الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" (١) ، وقد سأل رجل سيدنا رسول (صلى الله عليه وسلم) أن يدله على عمل يدخله الجنة ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): " كُنْ مُحْسِنًا"، فَقَالَ: كَيْفَ أَعْلَمُ أَنِّي مُحْسِنٌ؟ قَالَ: "سَلْ جِيرَانَكَ، فَإِنْ قَالُوا : إِنَّكَ مُحْسِنٌ، فَإِنَّكَ مُحْسِنٌ، وَإِنْ قَالُوا: إِنَّكَ مُسِيءٌ ، فَإِنَّكَ مُسِيءٌ" (٢)، وكانت العرب قديمًا تعرف حق الجيران ، وفي أمثالهم : "جارٌ

(١) النساء : ٣٦ .

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كِتَابُ الْجَنَائِزِ ، حديث رقم ١٣٩٩ . وقال: « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ ».

كجار أبي دؤاد"[1]، وكان هذا الرجل من خيرة الجيران لجيرانه، كان إذا مات أحد جيرانه وداه أي: دفع لأهله ما يعادل دية رجل ، وإذا فُقد لجاره شيء أخلفه عليه من ماله.

وعندما جاء بعض الناس إلى سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذكروا له امرأة صوّامة قوّامة ، تصوم النهار وتقوم الليل إلا أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : " هِيَ فِي النَّارِ " [2]، وقال (صلى الله عليه وسلم) : "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ" [3]، وقال (صلى الله عليه وسلم) : "مَا زَالَ

---

(١) تصحيفات المحدثين ، أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري (المتوفى: ٣٨٢هـ). المحقق: محمود أحمد ميرة. ط: المطبعة العربية الحديثة – القاهرة . الطبعة: الأولى، ١٤٠٢.ص: ٢ / ص ٨٤٠ .

(٢) مسند أحمد : ج١٥ ، ص ٤٢١ ، حديث رقم ٩٦٧٥ .

(٣) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَقِّ الجِوَارِ ، حديث رقم ١٩٤٤.

جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ" [1].

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ" [2]، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ" قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ" [3]، أي الذي لا يأمن جاره شـره .

فمن حق الجار أنه إذا مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن استعان بك أعنته ، وإذا

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كِتَابُ الأدب ، بَابُ الوَصَاةِ بِالْجَارِ ، حديث ٦٠١٥. وصحيح مسلم ، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالْجَارِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، حديث رقم ٢٦٢٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كِتَابُ الأدب ، بَابٌ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، حديث ٦٠١٨.

(٣) صحيح البخاري ، كِتَابُ الأدب ، بَابُ إِثْمِ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ، حديث ٦٠١٦.

استغاث بك أغثته ، وأن تكُفَّ عنه الشر لا أن تؤذيه أنت بأي لون من ألوان الشر قولًا أو فعلًا ، مع ضرورة مراعاة أعلى درجات المروءة معه ، وقد جعل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) شهادة الجار لجاره أو عليه من أعلى درجات التزكية أو الجرح ؛ لأن الإنسان وإن خدع بعض الناس بعض الوقت فإنه لا يمكن أن يخدع جيرانه كل الوقت (1).

وكان سيدنا أبو الدرداء (رضي الله عنه) يقول لزوجه: إذا طهيتِ طعامًا فأكثري المرق حتى نرسل لجيراننا منه ، وعَنْ أَبِي

(1) ذكر نحوه ابن قتبة الدينوري في المجالسة وجواهر العلم، وهو: أبو بكر أحمد ابن مروان الدينوري المالكي (المتوفى:333هـ). المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. ط: جمعية التربية الإسلامية (البحرين- أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت- لبنان) 1419هـ، ص: 86 ولفظه: قَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): إِنَّ فُلَانًا رَجُلُ صِدْقٍ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: هَلْ سَافَرْتَ مَعَهُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فهل كان بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُعَامَلَةٌ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلِ ائْتَمَنْتَهُ عَلَى شَيْءٍ؟ قَالَ : لَا. قَالَ : فَأَنْتَ الَّذِي لَا عِلْمَ لَكَ بِهِ ، أَرَاكَ رَأَيْتَهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَخْفِضُهُ فِي الْمَسْجِدِ.

ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ"(١).

وعَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"(٢) ، حيث إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أوصانا بحسن الجوار على إطلاقه ، ومعاملة جميع الجيران بما يستوجبه حق الجوار .

على أن الذي نؤكد عليه أن حق الجوار ليس حقًّا للأفراد فحسب ، إنما هو حق للدول أيضًا ، فكما أن للجوار الفردي

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالْجَارِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، حديث رقم ٢٦٢٥ .

(٢) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ عَنْ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَقِّ الجِوَارِ ، حديث رقم ١٩٤٣ .

حقًّا فإن لجوار الدول حقوقًا ، من أهمها : حفظ الحدود ، وحفظ العهود والمواثيق والاتفاقيات ، وألا يؤتى جارك من قِبلك ، وأن تغيثه إذا استغاث بك ، وهو ما تقوم به الدولة المصرية في تعاملها مع سائر جيرانها ، ولا سيما الأشقاء الليبيين الذين لهم أكثر من حق ، فحقهم لا يقف عند حدود الجوار إنما يتجاوزه إلى حقوق كثيرة يعرفها القاصي والداني .

❊ ❊ ❊

صناعة الوعي

صناعة الوعي صناعة ثقيلة أصعب بكثير من جميع الصناعات الحرفية والمهنية ، وبخاصة إذا كانت صناعة هذا الوعي تتطلب تغيير بعض القناعات أو الموروثات الفكرية والأيدلوجية ، أو تعديل المسار الفكري ، فالتخلية أصعب بكثير من كل عمليات التحلية ، وأرى أن عملية تعديل المسار الفكري وتصحيح المفاهيم الخاطئة يتطلبان تضافرًا مجتمعيًّا كبيرًا بين جميع مؤسسات صناعة الوعي : الدينية ، والتعليمية ، والإعلامية ، والثقافية ، والفكرية ، والتربوية ، والأسرية ، والفنية ؛ لننجوا بأبنائنا وشبابنا ومجتمعاتنا من محاولات الاختطاف وعمليات التغييب وتزييف الوعي .

أما فيما يتصل بمواجهة عملية تزييف الوعي فأرى أنها تحتاج إلى أمرين أساسيين :

الأول : التكاتف بين جميع مؤسسات بناء الوعي والتنسيق فيما

بينها لمواجهة عمليات التزييف والتغييب .

الأمر الآخر : هو الاتصال المباشر ، وهذا الدور يقوم به بصفة أساسية إمام المسجد سواء في مسجده أم في محيطه المجتمعي ، ويقوم به المعلم في مدرسته ومحيطه المجتمعي ، وأستاذ الجامعة في جامعته ومحيطه المجتمعي، كما أن على كل كاتب ومفكر وإعلامي ومثقف وأديب أو فنان ألا يقتصر دوره على حدود ما يكتب أو يقدم من عمل علمي ، أو فني أو درامي أو غيره ، إنما عليه أن يجتهد في أقصى درجات التواصل بينه وبين ذويه ومحبيه ومتابعيه ، كما أن للمرأة الواعية دورًا كبيرًا في ذلك ، وهو ما تقوم به واعظات الأوقاف بالتعاون مع المجلس القومي للمرأة، سواء في دروسهن أم في محيطهن الاجتماعي أم بالتعاون مع الرائدات الريفيات والمرشدات الصحيات من خلال حملات طرق الأبواب وغيرها .

وإذا كان تشكيل وعي أمة أو بناء ذاكرتها لا يتم بين لحظة

وأخرى أو بين عشية وضحاها ، إنما هو عملية شاقة ومركبة ، فإن الأصعب هو إعادة بناء هذه الذاكرة أو ردها إلى ما عسى أن تكون قد فقدته من مرتكزاتها ، فما بالكم لو كانت هذه الذاكرة قد تعرضت للتشويه أو محاولات الطمس أو المحو أو الاختطاف، ولا سيما لو كان ذلك قد استمر لعقود أو لقرون؟!

لقد تعرضت ذاكرة الأمة عبر تاريخها الطويل لمحاولات عديدة من المحو أو الشطب أو التغيير ، ناهيك عن محاولات الاختطاف وحالات الخمول والجمود ، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى استرداد هذه الذاكرة من خلال إعادة تنشيطها وتخليصها مما علق بها من شوائب في مراحل الاختطاف والتشويه التي قام بها أعداء الأمة ومن وظفوه لخدمتهم من جماعات التطرف والإرهاب .

وإذا كان من حاولوا السطو على ذاكرة أمتنا قد استخدموا المغالطات الدينية والفكرية والثقافية والتاريخية للاستيلاء على

هذه الذاكرة فإن واجبنا مسابقة الزمن لكشف هذه المغالطات وتصحيح المفاهيم الخاطئة ، وبيان أوجه الحق والصواب بالحجة والبرهان من خلال نشر الفكر الوسطي المستنير ، مع اعتبار العمل على خلق حالة من الوعي المستنير واسترداد ذاكرة الأمة التي كانت مختطفة أولوية المرحلة الراهنة ، مع التكثيف والإلحاح المستمر على مفردات هذا الوعي .

على أن بناء الوعي يتطلب الإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا ؛ لأننا دون إدراك هذه التحديات ودون الوعي بها لا يمكن أن نضع حلولاً ناجحة أو ناجعة لها ، وإذا كان المناطقة يؤكدون أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فإن معالجته أو مواجهة ما يرتبط به من تحديات لا يمكن أن تتم دون سبر أغوار وأعماق ما يراد الحكم عليه أو معالجته .

* * *

تحويل القبلة بين النص والواقع

يقول الحق سبحانه : "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى الله وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ الله بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"(1) ، لافتًا نظرنا بقوة إلى خطورة المرجفين في الناس، وبغاة الفتنة والشر ، حيث يقول سبحانه في شأن المنافقين ومروجي الشائعات : "لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَالله

(1) البقرة : ١٤٢ ، ١٤٣ .

عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"[1] ، ويقول سبحانه : " لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا" [2].

مما يجعلنا نتنبه بقوة إلى خطورة الشائعات وخطورة مروجيها ، وحتمية الاستيثاق من الأخبار قبل نشرها أو إذاعتها ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" [3].

ويقول الحق سبحانه وتعالى : " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي

---

(١) التوبة : ٤٧ .

(٢) الأحزاب : ٦٠ .

(٣) الحجرات : ٦ .

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ". [1]

فالعبرة في شأن القبلة وغيرها إنما هي بحسن الامتثال لأوامر الله (عز وجل) أن يجدك حيث أمرك ، وألا يجدك حيث نهاك ، وأن تكون دائما عند مراده سبحانه.

ومن الخطأ الفادح أن يكتفى في الأمور بشكلها دون فهم جوهرها ومضمونها ، فقد عانينا كثيرًا من أصحاب التدين الشكلي والتدين النفعي ، سواء هؤلاء الذين يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر ، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة متناسين أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

يُعد أحد أهم معاول الهدم والتنفير أو أصحاب التدين النفعي فهم الذين يتخذون من الدين وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس وبخاصة العامة- لدينهم- ، وإيهامهم بأن هدفهم من الوصول إلى السلطة إنما فقط هو خدمة دين الله (عز وجل) والعمل على نصرته والتمكين له.

أما الدرس الأعظم الذي نستفيده من دروس تحويل القبلة هو التحول من الشر إلى الخير ، والتحول من الأنانية إلى الإيثار ، ومن الشح والبخل إلى الكرم والسخاء ، ومن التعلق بالدنيا إلى الاستعداد للآخرة ، ومن الحقد والحسد إلى حب الخير للناس ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن السخط إلى الرضا ، ومن الجزع إلى الصبر ، ومن اليأس إلى الأمل ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن هجر القرآن إلى المداومة على تلاوته وفهمه وامتثال أوامره ونواهيه ، ومن الفحش والخنا إلى عفة اليد

والنفس واللسان ، ومن السباب والفسوق إلى الكلم الطيب ، ومن أذى الجار إلى إكرامه ، ومن سيء الأخلاق إلى مكارمها ومحاسنها ، ومن كل ما يغضب الله (عز وجل) إلى كل ما يرضيه (سبحانه) ويحقق لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

❋ ❋ ❋

حديث القرآن عن الأمن

تحدث القرآن الكريم عن الرزق والأمن وربط بينهما في مواضع متعددة ، منها قوله تعالى: "وَضَرَبَ الله مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"(١)، فلما كانت القرية آمنة مطمئنة يتعاضد أبناؤها في الحفاظ على أمنها كان يأتيها رزقها رغدًا وفيرًا هانئًا من كل مكان ، فلما كفرت بأنعم الله (عز وجل) عليها وجحدتها أذاقها الله (عز وجل) لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (٢).

ويقول سبحانه في سورة قريش :" لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ

---

(١) النحل : ١١٢ .

(٢) النحل : ١١٨ .

رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ"[1]، وفي سورة القصص عقب القرآن الكريم على أهل مكة بنعمتي الأمن والرزق مرتبطتين بحرمة الأمن ، فيقول سبحانه وتعالى : "أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"[2]، ويقول سبحانه في سورة الأنفال: "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[3]، وهذا نبي الله إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه أن يجعل لآله وذريته حرمًا آمنًا وأن يرزق أهله من الثمرات ، فيقول : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا

---

(١) قريش : ١ – ٤ .

(٢) القصص : ٧٥ .

(٣) الأنفال : ٢٦ .

وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ"[1] .

فالعلاقة بين الأمن والرزق وتوفير المناخ الملائم للاستثمار علاقة طردية ، فمتى تحقق الأمن والأمان والاستقرار تبعه النمو والاستثمار والعمل والإنتاج واتساع أسباب الرزق ، ومتى كانت الحروب ، أو التطرف والإرهاب ، والتخريب والتدمير ، والفساد والإفساد ، كان الشتات والفقر ومشقة العيش وصعوبة الحياة.

هذا وقد ربط القرآن الكريم بين الأمن والإيمان وشكر النعم ، فقال سبحانه : " لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ *

---

(١) البقرة : ١٢٦ .

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ"[1] .

لهذا كله حرم الإسلام كل ما يهدد أمن الناس وحياتهم، فالمؤمن الحقيقي من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ "[2]، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ"[3] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " وَالله لَا يُؤْمِنُ، وَالله لَا يُؤْمِنُ، وَالله لَا يُؤْمِنُ" قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ

(١) سبأ :١٥-١٨ .

(٢) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ الإيمان ، بَابُ مَا جَاءَ فِي أَنَّ الْمُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، حديث رقم ٢٦٢٧ .

(٣) مسند أحمد : ج ١٩ ، ص ٣٧٦ ، حديث رقم ١٢٣٨٣ .

الله؟ قَالَ: "الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ" [1]، أي الذي لا يأمن جاره شره .

❋ ❋ ❋

---

(١) صحيح البخاري ، كِتَابُ الأدب ، بَابٌ إِثْمِ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ ، حديث ٦٠١٦.

حديث القرآن الكريم عن الحق

كلمة الحق كلمة واسعة الدلالة ، ولها استعمالات كثيرة في كتاب الله (عز وجل) ، فالله (عز وجل) هو الحق ، يقول سبحانه : " ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "[1]، ويقول سبحانه : " ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ الله هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ "[2]، ويقول سبحانه: " ثُمَّ رُدُّوا إِلَى الله مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ "[3] ، ويقول جل شأنه: " فَتَعَالَى الله الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ "[4]، فالله (عز وجل) هو الحق ، وهو الذي يحق الحق بكلماته ، فقد سمّى

(١) الحج : ٦ .

(٢) الحج :٦٢ .

(٣) الأنعام : ٦٢ .

(٤) المؤمنون :١١٦ .

نفسه الحق ، وأمرنا بالحق تعظيمًا لشأنه ، ودعوة إلى تحقيقه في سائر جوانب حياتنا .

والقرآن الكريم هو القصص الحق ، يقول سبحانه:"إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا الله وَإِنَّ الله لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[1] ، ويقول سبحانه :" فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ"[2]، ويقول سبحانه : " وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"[3]، على رأي من فسر الحق هنا بأنه القرآن الكريم ومن فسر التواصي بالحق بأنه التواصي بأوامر الله (عز وجل) في القرآن الكريم .

ويوم الحق هو يوم القيامة ، ويوم الجزاء ، ويوم العدالة الإلهية ، يقول سبحانه : " ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى

(١) آل عمران : ٦٢ .

(٢) الأنعام : ٥ .

(٣) العصر : ٣ .

رَبِّهِ مَآبًا"[1]، ويقول سبحانه:" وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ"[2] ، الّذي لا مجال فيه للشّكّ .

والحق هو الحقيقة الثابتة المطابقة للواقع يقول سبحانه: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ"[3]، وهو الصدق الذي لا ريب فيه يقول سبحانه : "قَوْلُهُ الْحَقُّ"[4]، وهو البيان القاطع ، حيث يقول سبحانه : "قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ " [5].

(١) النبأ : ٣٩ .
(٢) الواقعة :٩٢- ٩٦.
(٣) يونس : ١٠٨ .
(٤) الأنعام : ٧٣ .
(٥) البقرة:٧١ .

وفي المال حق معلوم ونصيب مفروض ، يقول سبحانه:" وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" [1]، ويقول سبحانه: "وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" [2]، ويقول سبحانه: "وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" [3]، فهو حق للفقير على الغني .

ومن أهم الحقوق التي حثنا القرآن الكريم على الوفاء بها حق الوالدين ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا" [4]، فهو حق لهما ورد للجميل ، فنحن نرد بعض

---

(١) الذاريات: ١٩ .

(٢) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) الإسراء : ٢٦ .

(٤) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

الحق وليس كل الحق ، لا يمكن أن يوفي إنسان حق والديه على الإطلاق ، فقد أتى رجل إلى النبيِّ (صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ، فقال: يا رسولَ الله إني أريدُ الجهادَ في سبيلِ الله تعالى، فقال: "أحَيَّةٌ أُمُّكَ؟" قال: نعمْ ، فقال :" وَيْحَكَ ، الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ"[1] ، ويقول أبو فراس الحمداني[2] :

أَيـا أُمَّ الأَسـيرِ لِمَـن تُرَبّـى | وَقَد مُتِّ الذَوائِبَ وَالشُعورُ

إِذا اِبنُـكِ سـارَ في بَـرٍّ وَبَحـرٍ | فَمَن يَـدعو لَـهُ أَو يَسـتَجيرُ

بِـأَيِّ دُعـاءِ داعِيَـةٍ أُوَقّـى | بِـأَيِّ ضِـياءِ وَجـهٍ أَسـتَنيرُ

بِمَـن يُسـتَدفَعُ القَـدرَ المُـوَفّى | بِمَن يُستَفتَحُ الأَمـرُ العَسـيرُ

(١) سنن ابن ماجه ، كِتَابُ الْجِهَادِ ، بَابُ الرَّجُلِ يَغْزُو وَلَهُ أَبَوَانِ ، حديث رقم ٢٧٨١ .

(٢) قصيدة "أَيا أُمَّ الأَسيرِ سَقاكِ غَيثٌ" من ديوان أبى فراس الحمداني ، وهو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن الحارث العدوي . قال عنه ابن شرف القيرواني: فارس هذا الميدان ، إن شئت ضربًا وطعنًا ، وإن شئت لفظًا ومعنى . ص ٢٣٤ ط: دار الكتاب العربي – بيروت ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م .

إنه حق الوالدين ، فعلى كل منا أن يتفانى في خدمتهما خاصة عند الكبر وليقل : "رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا"[1].

وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ يقول: "اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"[2].

---

(١) الإسراء : ٢٤ .

(٢) صحيح مسلم ، كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا ، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ ، حديث رقم ٧٦٩ .

كل ذلك يجعلنا إنما نحرص على الحق ، وأخذ الحق ، وإعطاء الحق ، وإخراج حق المال من الزكاة والصدقات ، والوفاء بحق الوالدين ، وحق الأبناء ، وحق الجوار ، وسائر الحقوق والواجبات ، استعدادًا ليوم الحق ، يوم لقاء الحق .

* * *

حديث القرآن الكريم عن الصدق

إن من عظمة الشريعة الإسلامية أنها دعت إلى القيم النبيلة، والأخلاق الفاضلة التي تقرب الإنسان إلى ربه، وتسهم في بناء المجتمعات الراقية، ومنها: خلق الصدق الذي جاء في القرآن الكريم في مواضع التشريف، والتكريم، والإجلال، ولا أدل على ذلك من أن الله سبحانه وتعالى وصف به نفسه، حيث يقول (عز وجل): "قُلْ صَدَقَ اللهُ"(١)، ويقول سبحانه: "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا"(٢)، ويقول تعالى: "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا"(٣)، ويقول (جل شأنه): "وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ"(٤)، ويقول تعالى : "وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ"(٥).

---

(١) آل عمران : ٩٥.

(٢) النساء : ١٢٢.

(٣) النساء : ٨٧ .

(٤) آل عمران : ١٥٢ .

(٥) الأحزاب : ٢٢ .

وقد بين القرآن الكريم أن الصدق من صفات الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) ، فهم المبلِّغون عن الله (عز وجل) رسالاته، حيث يقول سبحانه: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا"[١]، ويقول تعالى:"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ"[٢]، ويقول سبحانه: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا"[٣]، ويقول (عز وجل): "يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ..." [٤] .

وقد وصف الله تعالى نبينا (صلى الله عليه وسلم) في القرآن بالصدق؛ فقد جاء به، ودعا إليه ، حيث يقول (عز وجل): "وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ"[٥] ، ويقول سبحانه: " بَلْ

---

(١) مريم : ٤١ .

(٢) مريم : ٥٤ .

(٣) مريم : ٥٦ .

(٤) يوسف : ٤٦ .

(٥) الزمر : ٣٣ .

جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ"[1]، وقد كان صدقه (صلى الله عليه وسلم) سجية عُرف بها حتى قبل بعثته ، ولذلك كان يلقب بالصادق الأمين ، وقد جعل (صلى الله عليه وسلم) الصدق منهج حياة .

كما جعل القرآن الكريم الصدق من صفات المؤمنين، حيث يقول الحق سبحانه : "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ الله لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"[2]، ويقول سبحانه: "لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ الله وَرِضْوَانًا

(١) الصافات : ٣٧ .

(٢) الأحزاب : ٣٥ .

وَيَنصُـرُونَ الله وَرَسُـولَهُ أُولَئِـكَ هُـمُ الصَّـادِقُونَ"[1] ، ويقـول سبحانه: "مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا الله عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِـنْهُمْ مَـنْ يَنْتَظِـرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلًا * لِيَجْزِيَ الله الصَّـادِقِينَ بِصِـدْقِهِمْ وَيُعَـذِّبَ الْمُنَـافِقِينَ إِنْ شَـاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا" [2]، ويقول تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّـذِينَ آمَنُـوا بِـالله وَرَسُـولِهِ ثُـمَّ لَمْ يَرْتَـابُوا وَجَاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"[3] .

إن الصدق خير كله ، حيث يقول سبحانه:"فَلَوْ صَدَقُوا الله لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ"[4]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا : حِفْظُ أَمَانَةٍ،

(١) الحشر : ٨ .

(٢) الأحزاب : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) الحجرات : ١٥ .

(٤) محمد : ٢١ .

وَصِـدْقُ حَدِيثٍ ، وَحُسْنُ خَلِيقَـةٍ ، وَعِفّـةٌ فِي طُعْمَـةٍ"[1] ، والصدق أحد أهم ركائز الإيمان ، حتى إن بعض العلماء قد ربطوا بين الإيمان والصدق ، فقالوا: الإيمان أن تقول الصدق مع ظنك أن الصدق قد يضرك، وألا تقول الكذب مع ظنك أن الكذب قد ينفعك ؛ ليقينك أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، كما أن الكذب أبرز صفات المنافقين، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"[2] .

لقد جاء الصدق في القرآن الكريم شاملًا لكل أعمال البر والخير، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمُشْرِقِ وَالْمُغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ

(١) مسند أحمد : ج ١١ ، ص ٢٣٣ ، حديث رقم ٦٦٥٢ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كِتَابُ الإيمان ، بَابُ عَلَامَةِ الْمُنَافِقِ ، حديث ٣٣. وصحيح مسلم ، كِتَابُ الإيمان ، بَابُ بَيَانِ خِصَالِ الْمُنَافِقِ ، حديث رقم ١٠٧ .

الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" [1].

وقد وعَد الله تعالى الصادقين بأعظم الجزاء، وأفضل الثواب؛ حيث يقول سبحانه: " قَالَ الله هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[2]، وجعَل الحق سبحانه وتعالى مرتبة الصِّديقين بعد مرتبة النبيين، وجعلهم في صحبة الشهداء والصالحين في الجنة، يقول تعالى: "وَمَنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) المائدة : ١١٩ .

النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" [1]، وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا عَمَلُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: " الصِّدْقُ ، وَإِذَا صَدَقَ الْعَبْدُ بَرَّ ، وَإِذَا بَرَّ آمَنَ ، وَإِذَا آمَنَ دَخَلَ الْجَنَّةَ.."[2] .

وتحدث القرآن الكريم عن وعد الصدق الذي لا وعد مثله في قول الحق سبحانه:" أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ"[3]، وكما تحدث القرآن الكريم عن وعد الصدق تحدث عن مخرج الصدق ، ومدخل الصدق ، ومبوأ الصدق ، ومقعد الصدق ، ولسان الصدق ، وقدم الصدق ،

---

(١) النساء : ٦٩ .

(٢) مسند أحمد : ج ١١ ، ص ٢١٦ ، حديث رقم ٦٦٤١ .

(٣) الأحقاف : ١٦ .

فأما مخرج الصدق فهو كل مخرج خرجته لله (عز وجل) من بيتك أو غيره إلى أي مكان ، فإن كان خروجًا إلى الخير فهو مخرج صدق ، وإن كان إلى شر فهو مخرج الكذب ، فمن خرج لطاعة ، أو مساعدة فقير ، أو إغاثة ملهوف فهو خروج خير ومخرج صدق ، وأما من خرج لأذى أو إفساد فهو خروج شر ومخرج كذب ، وكذا الحال في الدخول أيضًا .

وأما مبوأ الصدق ، فهو المنزلة الحسنة في الدنيا ، حيث يقول سبحانه : " وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ "(١)، وأما مقعد الصدق فهو المنزلة العالية في الجنة، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ " (٢)، وأما لسان الصدق فهو الثناء الحسن بحق في الدنيا ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم

---

(١) يونس : ٩٣ .

(٢) القمر : ٥٤-٥٥ .

(عليه السلام) : "وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ"[1]، ويقول سبحانه : " فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا " [2].

وأما قدم الصدق فهو مَقْدمهُ ، وهو كناية عن إكرام الله لهم يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ " [3].

وقد وصى الحق سبحانه عباده المؤمنين بالصدق ، فقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ"[4]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّـدْقَ

---

(١) الشعراء : ٨٤ .

(٢) مريم : ٤٩-٥٠ .

(٣) يونس : ٢ .

(٤) التوبة : ١١٩ .

يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا"[1] .

الصدق محمود على كل حال ، في الأقوال وفي الأفعال ، وفي الهمم ، يقول الحق سبحانه وتعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " [2]، ويقول سبحانه : " وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ " [3]، ويقول (عز وجل) : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ، بَابُ قُبْحِ الْكَذِبِ وَحُسْنِ الصِّدْقِ وَفَضْلِهِ ، حديث رقم ٢٦٠٧ .

(٢) التوبة : ١١٩ .

(٣) العنكبوت : ٣ .

بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"[1]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ" [2].

ومن أبرز نماذج الصدق في الأقوال والأفعال والهمم ما كان من ذلكم الرجل الذي جاءَ إلى النَّبيِّ (صلَّى الله علَيهِ وسلَّمَ) فآمنَ بِهِ واتَّبعَهُ ، ثمَّ قالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ؟ فَأَوْصَى النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَصْحَابَهُ بِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ خَيْبَرَ أَوْ حُنَيْنٍ غَنِمَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) شَيْئًا فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قَسَمَهُ لَكَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَخَذَهُ فَجَاءَهُ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ، مَا عَلَى هَذَا

---

(١) الحجرات : ١٥ .

(٢) مسند أحمد : ج ١١ ، ص ٢٣٣ ، حديث رقم ٦٦٥٢ .

اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى هَا هُنَا وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ فَأَمُوتَ وَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «إِنْ تَصْدُقِ الله يَصْدُقْكَ» فَلَبِثُوا قَلِيلًا، ثُمَّ دَحَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ يُحْمَلُ وَقَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «أَهُوَ هُوَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «صَدَقَ الله فَصَدَقَهُ» فَكَفَّنَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ: "اللهمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا فَأَنَا عَلَيْهِ شَهِيدٌ" (١).

على أننا نؤكد أن الصدق كما يطلب على مستوى الأفراد يطلب على مستوى الدول ، فالدول الصادقة هي التي تحترم وتفي بعهودها ومواثيقها والتزاماتها الدولية ، أما الدول الكاذبة المخادعة فهي التي لا تفي بعهود ، ولا وعود ، ولا

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ (رَضِيَ الله عَنْهُمْ) ، ذِكْرُ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ (رَضِيَ الله عَنْهُ) ، حديث رقم ٦٥٢٧ .

اتفاقيات ، وهذه الدول الكاذبة مآلها الخزي والسقوط وإن طال الأمد ؛ لأن التاريخ يثبت أن الدول التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أسس بنائها وأصل قيامها.

* * *

حديث القرآن
عن بُغاة الفتنة والمفسدين في الأرض

لقد أمر القرآن الكريم بكل خير وإصلاح، ونهى عن كل شر وإفساد، حيث يقول تعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا"(١)، كما بيَّن سبحانه أنه لا يحب الفساد ولا المفسدين، يقول (عز وجل): "واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ"(٢)، ويقول سبحانه: "إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"(٣) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "فَأَمَّا مَن ابْتَغَى وَجْهَ الله وَأَطَاعَ الْإِمَامَ وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ ، وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ ، وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ ، فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ ، وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً ، وَعَصَى الْإِمَامَ ، وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ بِالْكَفَافِ"(٤).

---

(١) الأعراف .

(٢) البقرة :٢٠٥ .

(٣) القصص : ٧٧ .

(٤) مسند أحمد : ج ٣٦ ، ص ٣٦٨ ، حديث رقم ٢٢٠٤٢ .

وإنَّ المتأمل في القرآن الكريم يجد أنه قد أولى الحديث عن بغاة الفتنة، والمفسدين في الأرض عناية خاصة؛ وذلك لبيان ضلالهم، وإظهار خطرهم على الأديان والأوطان، فقد أخبرنا سبحانه وتعالى أن الأنبياء وأهل الفضل في كل زمان ومكان ينهون عن الفساد، ويحذرون من المفسدين، يقول تعالى: "وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ"(1)، ويقول سبحانه: "فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ"(2) .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه صفات المفسدين والبغاة، ومنها: الكذب، والتدليس، وادِّعاء الصلاح، والإصلاح ؛ حيث يقول تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ

(1) الأعراف : ١٤٢ .

(2) الأعراف : ١١٦ .

لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ"[1] ، ويقول تعالى : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ"[2]، ويقول تعالى:"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَــاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" [3].

ومنهـا : الإرجاف في الأوطان ، ونشر الشائعات ، وبث الفتنة والوهن بين الناس عن طريق وسائل الإعلام الموجهة، ووسائل الاتصال الحديثة ، يقول (جل شأنه): "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا

---

(١) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥.

(٢) البقرة : ١١، ١٢ .

(٣) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤.

ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا "[1]، ويقول الحق سبحانه وتعالى في شأن المنافقين والمرجفين في الأرض : "لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" [2]، ويقول سبحانه : "قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا" [3].

ومنهـــا: التواصل مع الأعداء والتحالف معهم على حساب الدين والوطن ، والفرح إذا ألمَّ بأبناء الوطن شرّ، أو تفشَّى فيهم مرض ، يقول تعـالى : " فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى

(١) الأحزاب : ٦٠ ، ٦١

(٢) التوبة : ٤٧ .

(٣) الأحزاب : ١٨ .

اللهِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ"[1] ، ويقول سبحانه : "وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا" [2]، ويقول تعالى: "إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"[3] .

وذلك الفساد الظاهر والحقد البيِّن نابع من فساد القلوب ؛ حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :"..أَلَاوَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً : إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ

(١) المائدة : ٥٢ .

(٢) النساء : ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) آل عمران : ١٢٠ .

الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ " [1] .

إن مواجهة الفساد أحد أهم دعائم الحكم الرشيد ؛ فالمفسدون ، والبغاة ، والمعوِّقون لمسيرة الخير والإصلاح مِعول هدم للمجتمع، ولا بد من التصدي لهم بكل حزم وقوة ، فهم شرار الخلق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):"أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْـمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ" [2] .

وقد بيَّن القرآن الكريم جزاء بغاة الفتنة والمفسدين في الدنيا، ومصيرهم في الآخرة، حيث يقول سبحانه: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كِتَابُ الإيمان، فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، حديث رقم ٥٢. وصحيح مسلم، كِتَابُ الْمُسَاقَاةِ، بَابُ أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ، حديث رقم ١٥٩٩ .

(٢) مسند أحمد : ج ٤٥ ، ص ٥٧٧ ، حديث رقم ٢٧٦٠٢ .

الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[1]، ويقول (عز وجل): "وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ"[2] ، ولا يظننَّ باغٍ أو مفسد أنه إن نجا أو أفلت من حساب الناس فإنه سيفلت من حساب الخالق (عز وجل).

أما المرجفون في الأرض مروجو الشائعات والأكاذيب بغية إسقاط الدول وإحداث هزة أو رجفة بها فجزاؤهم في قوله تعالى: " لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا" [3].

(١) المائدة : ٣٣ .

(٢) الرعد : ٢٥ .

(٣) الأحزاب : ٦٠ ، ٦١ .

وقد قال بعض المفسرين وأهل العلم في قوله تعالى : "أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا " هذا خبر فيه معنى الطلب ، بما يعني أن خيانة الأوطان والإرجاف فيها قصد إسقاطها أو إفشالها أو التخابر لصالح أعدائها - وهو ما يعرف بالخيانة الوطنية الكبرى - هو القتل ، على أن ذلك إنما يكون وفق ما ينظمه قانون الدول ، وليس أمرًا مباحا للأفراد أو الجماعات أو القبائل خارج إطار العدالة والقانون .

فالمفسدون جهرًا خوارج وبغاة ، والمفسدون سرًّا هم الجبناء المنافقون ، والنفاق قائم على مخادعة المجتمع وبث الأراجيف بين أبنائه ، والكذب وإشاعة الفتنة من أخص صفات المنافقين ، والخونة والعملاء والطابور الخامس خطر داهم في ظهور أوطانهم ، ومرض يجب استئصاله ، وأخطر أنواع الخيانة هي الخيانة تحت غطاء الدين ، أو المتاجرة بشعارات زائفة يعرفها الجميع ، وكشف الخونة وتخليص

المجتمع من شرهم واجب شرعي ووطني ، ولا غنى عنه للحفاظ على أمن الدول وأمانها ، فلم تسقط دولة عبر التاريخ إلا كانت خيانة بعض أبنائها أحد أهم عوامل سقوطها، وجواسيس اليوم ليسوا كجواسيس الأمس ، لهم مسوح الثعالب وجلود الثعابين ، وتحصين الدول يتطلب تخليصها من شرهم.

كما أن من أهم صفات المنافقين الخونة والعملاء محاولة تعطيل مسيرة الاقتصاد وإفشال الدولة اقتصاديًّا ، فصفات المنافقين والبغاة والمفسدين وجزاؤهم في القرآن الكريم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَالله لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ" [1]، ويقول (عز وجل): "لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا

---

(١) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"[1]، ويقول تعالى:" هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلله خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ"[2]، ويقول سبحانه وتعالى:" إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"[3]، " إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" [4].

* * *

---

(١) التوبة : ٤٧ .

(٢) المنافقون : ٧ .

(٣) آل عمران : ١٢٠ .

(٤) المائدة : ٣٣ .

حديث القرآن
عن الزروع والثمار

كانت الزراعة ولا تزال أحد أهم الأعمدة التي تبنى عليها الحضارات، وحديث القرآن الكريم عن الزروع والثمار حديث عظيم ، ينبئ عن اهتمامه بالزراعة والفلاحة وما يخرج من ثمرات الأرض ، وبيان أنها نعمة من أعظم نعم الله (عز وجل) على عباده ، حتى إن القرآن الكريم أطلق على ما تنبته الأرض من أعناب ونخيل وزروع وثمار جملة (جنة) أو (جنات) في مواضع عديدة ، فهي جنة الدنيا أو جناتها، يقول الحق سبحانه في سورة سبأ : "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا

كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ"[1]، فعبر النص القرآني عما أفاء الله (عز وجل) به عليهم بلفظ "جنتين" إحداهما عن يمين السائر والأخرى عن شماله ، وبين أن النعم تدوم بالشكر والحفاظ عليها والعناية بها" كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ"[2]، فلما أعرضوا كان ذلك إيذانًا بإهلاك ما هم فيه من النعيم ، وبُدِّلوا بالزروع والثمار اليانعة الأثل والشوك وشيء من سدر قليل ، يقول الحق سبحانه :" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ"[3] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " يَا عَائِشَةُ أَحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ الله (عَزَّ وَجَلَّ) فَإِنَّهَا مَا نَفَرَتْ عَنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَكَادَتْ أَنْ تَرْجِعَ

---

(١) سبأ : ١٥– ١٧ .

(٢) سبأ : ١٥ .

(٣) إبراهيم : ٧ .

إِلَيْهِـــمْ"[1].

ويقول سبحانه وتعالى : " وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"[2]، ويقول سبحانه : "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[3]، فقد عدَّ الحق سبحانه وتعالى اخضرار الأرض نعمة من عظيم نعمه

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ، السادس والعشرين من شعب الإيمان"الجهاد"، حديث رقم ٤٢٣٦ .

(٢) الأنعام : ٩٩ .

(٣) الرعد : ٤ .

تقتضي المحافظة عليها ، كما لفت أنظارنا إلى ضرورة التأمل في خلقه ، حيث المتجاور من الزرع في التربة الواحدة والمشترك معه في السقي ، ترى هذا حلوًا وهذا حامضًا ، والتربة واحدة ، والماء واحد ، والمذاق شيء آخر ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأُكل .

وفي مجال تعداد نعمه (عز وجل) على خلقه يقول سبحانه : " وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ "(1)، ويقول سبحانه وتعالى: " وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ "(2)، فالماء نعمة

---

(1) المؤمنون : ١٨-٢٠ .

(2) ق : ٩،١٠ .

تستحق الشكر ، وإنبات الزرع والنخيل والثمار نعمة أخرى تستحق شكرًا آخر.

كل ذلك يدل دلالة واضحة على أهمية الزراعة والفلاحة والحرص على عمارة الكون ، فبالزراعة يحيا الإنسان والحيوان ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا *وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ " (١).

* * *

(١) النازعات : ٣٠-٣٣ .

حقيقة الدنيـــا

تحدث العلماء والأدباء والحكماء والشعراء عن الدنيا حديث عارف بها ، خبير بطبيعتها ، فقال بعضهم : من طلب الراحة في الدنيا- أي الراحة التامة الكاملة الدائمة – طلب ما لم يخلق، ومات ولم يرزق ؛ لأن الله (عز وجل) يقول : "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ"(١)، ويقول أبو البقاء الرندي(٢) :

لكـل شيءٍ إذا مـا تـم نقصـانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسـانُ
هي الأيـامُ كـما شـاهدتها دُولٌ مَن سَرَّهُ زَمـنٌ سـاءَتهُ أزمـانُ

---

(١) البلد : ٤ .

(٢) أبو البقاء الرّنديّ هو صالح بن أبى الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبى البقاء، كان مسقط رأسه رنده إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر وينابيع وتحفّها وديان، يقول المراكشى إنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره» وكانت وفاة أبى البقاء الرندى سنة ٦٨٤ للهجرة. تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف . ج ٨ ، ص ٣٩١ ، ط: دار المعارف ، مصر ، ط: الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥م

ويقول البارودي[1] :

إذا أحسَنتَ يومًا أساءت ضُحى غـدٍ فَإِحْسَانُهَا سيْفٌ عَلَى النَّاسِ جَائِرُ
تــربُّ الفتــى حتَّــى إذا تَــمَّ أمــرهُ دَهَتْهُ كَــما رَبَّ الْبَهِيمَـةَ جَـازِرُ

ويقول خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) في إحدى خطبه : أَيهَا النَّاس ، إِنَّكُم لم تُخلقوا عَبَثا ، وَلم تتركوا سدى ، وَإِنَّ لكم معادًا ينزل الله تبَارك وَتَعَالَى

---

(١) محمود سامي البارودي ، من أسرة جركسية ذات جاهٍ ونسب قديم ، وتنتمي إلى حكام مصر المماليك، كان مولده عام ١٨٣٠م ، وتيتَّمَ محمود البارودي صغيرًا، وهو في السابعة من عمره ، وتقلب البارودي في مناصب الدولة، وكان ذا حظوةٍ لدى إسماعيل باشا، فاتخذه كاتم سره، وسافر في رحلتين سياسيتين إلى الآستانة في مهمةٍ خاصَّةٍ، ومكث اثنتي عشرة سنة بجوار الخديوي إسماعيل، وهو إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث، وكان أول من نهض به وجارى في نظمه فحول الشعراء المتقدمين؛ فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود. انظر كتاب "في الأدب الحديث" لعمر الدسوقي، ط: دار الفكر العربي ، الطبعة : ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م بتصرف .

لِلْحكم فِيهِ والفصل بَيْنكُم ، فخاب وخسر من خرج من رَحْمَة الله الَّتِي وسعت كل شَيْء ، وَحُرم الْجنَّة الَّتِي عرضهَا السَّمَوَات وَالْأَرْض ، أَلا ترَوْنَ أَنكُمْ فِي أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الْبَاقُونَ حَتَّى ترد إِلَى خير الْوَارِثين ، فِي كل يَوْم تشيعون غاديًا إِلَى الله ورائحًا قد قضى نحبه وانقضى أَجله ، ثمَّ تغيبونه فِي صدع من الأَرْض غير موسد وَلَا ممهد قد فَارق الأحباب ، وخلع الأسلاب ، وواجه الْحساب ، وَسكن التُّرَاب مرتهنًا بِعَمَلِهِ ، غَنِيًّا عَمَّا ترك فَقِيرًا إِلَى مَا قدم (1).

ويقول الإمام الحسن البصري (رحمه الله) : يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا ، ولا تبع آخرتك بدنياك

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه لعبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع ، أبو محمد المصري (المتوفى: ٢١٤هـ) المحقق: أحمد عبيد. ط: عالم الكتب - بيروت – لبنان الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٣٤ .

فتخسرهما جميعًا، يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به ، الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل، أمتكم آخر الأمم وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون؟ آلمعاينة؟ فكأن قد ، هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة! أما أنه والله لا أمة بعد أمتكم، ولا نبيّ بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم[1].

ويقول عبد الحميد الكاتب : "فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، وجعل فيها أقسامًا مختلفة بين أهلها، فمن

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) ط: دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٤٢٣هـ ، كتاب الزهد ، ج٣ ، ص ٩٠ .

درت له بحلاوتها وساعده الحظ فيها، سكن إليها، ورضي بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها. وتوطأته بثقلها، قلاها نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيدًا منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درها أفاويق استحليناها، ثم شمست منا نافرة، وأعرضت عنا متنكرة، ورمحتنا مُولية، فملح عذبها ، وأمر حلوها ، وخشن لينها ، فمزقتنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان ، فدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة"[1].

ويقول رب العزة (عز وجل) في محكم التنزيل: "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، لعبد الله بن الطيب بن عبد الله بن الطيب بن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، باب أثر القرآن على البلغاء ، ج ٣ ، ص ٢٥ ، ط: دار الآثار الإسلامية- وزارة الإعلام الصفاة – الكويت ، الطبعة: الثانية ، سنة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م.

يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[1]، ويقول سبحانه : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِالله الْغَرُورُ"[2]، فعش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به ، ومن لم يتعظ بتخطف الموت من حوله فلا واعظ له .

مع تأكيدنا أن معرفة حقيقة الدنيا لا تعني اعتزالها ، ولا ترك الأخذ بالأسباب والتقاعس عن عمارة الكون وصناعة الحياة ، غير أن بعض الناس قد يفهمون الزهد على غير وجهه الحقيقي ، حيث يرتبط الزهد في أذهان بعضهم بجوانب شكلية

---

(١) يونس : ٢٤ .

(٢) فاطر : ٥ .

لا علاقة لها بحقيقته ، فيتوهمون خطأً أن الزهد رديف الفقر أو حتى الفقر المدقع، فالزاهد في تصور البعض شخص بالضرورة قليل المال ، وربما قليل الحيلة ، وربما رث الثياب أو مخرقها ، صوته لا يكاد يبين ، ويده لا تكاد تلامس مصافحها ، ثم تطور الأمر إلى سلبية أشد بهجر العمل ، وربما ترك الدراسة العلمية أو عدم الاكتراث بها ، والخروج من الدنيا بالكلية إلى عالم أقرب ما يكون إلى الخيالات الخاطئة منه إلى دنيا الواقع ، في تعطيل مقيت وغريب وعجيب وشاذ للأسباب ، مع أن ذلك كله شيء والزهد شيء آخر .

وقد قال أهل العلم : ليس الزاهد من لا مال عنده ، إنما الزاهد من لم تشغل الدنيا قلبه ولو ملك مثل ما ملك قارون ، وسئل الإمام أحمد بن حنبل[1] (رحمه الله تعالى) : أيكون الرجل

(١) هو أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ أَبُو عَبْدِ الله الشَّيْبَانِيُّ، المَرْوَزِيُّ، ثُمَّ البَغْدَادِيُّ ، قال عنه الذهبي: هُوَ: الإِمَامُ حَقًّا، وَشَيْخُ الإِسْلَامِ صِدْقًا، أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَعْـلَامِ ، وقـال=

زاهدًا وعنده ألف دينار؟ قال : نعم ، إذا كان لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت ، ولذا كان من دعاء الصالحين : اللهم اجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا .

فالزهد الصحيح ليس قرينًا للفقر ، بل قد يكون قرين الغنى، ليملك الإنسان ثم يزهد ، فهو زهد الغني ، وليس زهد المعدم، كما أن الزهد لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ، فالأخذ بالأسباب شيء والزهد شيء آخر ، يتكاملان ولا يتناقضان .

* * *

= أحمـد: نَحْنُ كَتَبْنَا الحَدِيْثَ مِنْ سِتَّةِ وُجُوْهٍ وَسَبْعَةٍ لَمْ نَضبِطْهُ، فَكَيْفَ يَضبِطُه مَنْ كتبه مِن وَجْهٍ وَاحِدٍ؟! قَالَ عَبْدُ الله بنُ أَحْمَدَ: قَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلفَ أَلفِ حَدِيْثٍ. فَقِيْلَ لَهُ: وَمَا يُدرِيكَ؟ قَالَ: ذَاكَرْتُهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الأَبْوَابَ. انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧، رقم ٧٨ . ط: مؤسسة الرسالة "بتصرف".

حرمة المال العام

حفظ المال أحد الكليات الست والمقاصد الكلية السامية التي أحاطها ديننا الحنيف بالعناية والحفظ والرعاية والصيانة، حيث يحذر الحق سبحانه وتعالى من أكل أموال الناس بالباطل، فيقول (عز وجل): " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا"(1)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ"(2)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ ، إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ

---

(١) النساء: ٢٩-٣٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ ، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ}[الأنفال: ٤١] ، حديث رقم ٣١١٨.

إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ"[1]، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ"[2].

ولحفظ المال شُرع حد السرقة ، وشرع الضمان ، والكفالة ، والوكالة ، والحجر لحق المال ، كما تضمن حد الحرابة حفظ المال أيضًا ، ونبهنا الشرع الحنيف إلى كتابة الدين ، والوفاء به ، وبالأمانات ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى الله عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ الله" [3]، ويقول (صلى الله عليه وسلم):" لَا

(١) سنن الترمذي، أَبْوَابُ السفر، بَابُ مَا ذُكِرَ فِي فَضْلِ الصَّلَاةِ، حديث رقم ٦١٤.
(٢) صحيح مسلم ، كِتَابُ الإيمان ، بَابُ وَعِيدِ مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٍ بِالنَّارِ ، حديث رقم ٢١٨.
(٣) صحيح البخاري ، كِتَاب فِي الِاسْتِقْرَاضِ وَأَدَاءِ الدُّيُونِ وَالحَجْرِ وَالتَّفْلِيسِ، بَابُ مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَوْ إِتْلَافَهَا ، حديث رقم ٢٣٨٧.

إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ"[1].

وعاقبة الحرام وخيمة في الدنيا والآخرة ، فقد ذكر نبينا (صلى الله عليه وسلم)" الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!"[2] .

والمال الحرام يشمل كل ما تتحقق بطريق غير مشروع كالغش : نوعًا أو كمًّا ، كيلًا أو ميزانًا ، أو مقياسًا ، وأشد أنواع الغش حرمة وخطرًا على المجتمعات ما يتعلق بحياة الناس وأقواتهم وغذائهم وعلاجهم ، فمن غشَّ في شيء من ذلك وهو يعلم أن غشه فيه مؤد للقتل فهو قاتل عمدًا ، وإن كان

(١) مسند أحمد : ج ١٩ ، ص ٣٧٦ ، حديث رقم ١٢٣٨٣ .

(٢) صحيح مسلم ، كِتَابُ الزكاة ، بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا، حديث رقم ١٠١٥ .

يدرك أنه مضرٌ بصحة الناس وغير صالح للاستهلاك الآدمي فأدى إلى القتل ، فهو قاتل قتلًا شبه عمد .

ومن أشد صور الحرام ما يتحقق بطريق الرشوة أو الاختلاس ، أو أكل حقوق الآخرين من عامل أو أجير أو غيرهما ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في الحديث القدسي الذي يرويه عن رب العزة (عز وجل) : " قَالَ الله : ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ "[1]، وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ :" لَعَنَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ" يَعْنِي : الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا[2].

(١) صحيح البخاري ، كِتَاب البيوع ، بَابُ إِثْمِ مَنْ بَاعَ حُرًّا ، حديث رقم ٢٢٢٧.

(٢) مسند أحمد : ج ٣٧ ، ص ٨٥ ، حديث رقم ٢٢٣٩٩.

مع تأكيدنا أن ضياع المال إهمالاً كضياعه إفسادًا فكلاهما ضياع على كل حال ، فكلٌّ من قصّر في حماية المال العام أو تسبب في إتلافه أو إفساده أو ضياعه فهو آثم شرعًا.

وختامًا نؤكد أن الاعتداء على المال العام أشد إثمًا وجرمًا وخطرًا من المال الخاص ؛ لكثرة الأنفس والذمم المتعلقة به ، فالأمانة فيه أشد ، والمسئولية فيه أعظم .

❊ ❊ ❊

أسباب رفع البلاء

لرفع البلاء أسباب من أهمها :

١- تصحيح الفهم الخاطئ لمعنى التوكل ، فبعض الناس يضعون التوكل في غير موضعه ، فعندما تحثه على الأخذ بالأسباب الوقائية يقول لك : يا أخي ، توكل على الله ، نعم، علينا أن نتوكل على الله (عز وجل) لكن شريطة أن نفهم حقيقة التوكل ، ونحسن تطبيقه ، فعندما سأل أعرابي سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ناقته : أعقِلُها وأتوَكَّلُ أو أطلِقُها وأتوَكَّلُ ؟ فقالَ (صلى الله عليه وسلم) : "اعقِلها وتوَكَّلْ"[1].

ولقد عاب سيدنا عمرُ بن الخطاب (رضي الله عنه) على جماعة من الناس ، كانوا يحجون بلا زاد فذمهم ؛ فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ ،

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الحَوْضِ ، بعد تسعة وثلاثين بابًا منه ، حديث رقم ٢٥١٧ .

أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، لَقِيَ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ. قَالَ : بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى الله"[1].

٢- الأمر الآخر هو الخروج من حَوْلِنا وقوتنا إلى حَولْ الله (عز وجل) وقوته ، وإدراك أن الأمر كله أولًا وآخرًا لله (عز وجل)، فهو القادر على إجراء المسببات على أسبابها أو عدم إجرائها ، فمن خاصية النار أن تحرق ، لكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، ومن خاصية السكين أن تذبح ، ولكنها لم تذبح سيدنا إسماعيل (عليه السلام) ، ومن خاصية الحوت أن يهضم ما يبتلعه، لكنه لم يهضم سيدنا يونس (عليه السلام) ، فمهما بلغ علمنا ينبغي ألا نغفل عن قدرة خالقنا، وهو القائل:

---

(١) التوكل على الله ، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط: مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م. ص ٥٠ .

" حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[1].

٣- الأمر الثالث: لزوم الطاعة والاستغفار ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[2]، ويقول سبحانه :" وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا"[3]، ويقول سبحانه :"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ"[4]، ويقول (صلى الله عليه

---

(١) يونس : ٢٤ .

(٢) الأعراف : ٩٦ .

(٣) الجن : ١٦ .

(٤) الأعراف : ٥٨ .

وسلم): "مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ"[1].

٤- الأمر الرابع: التضرع إلى الله (عز وجل) حيث يقول الحق سبحانه : " فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا"[2] ، ولنا في نبي الله أيوب (عليه السلام) أسوة حسنة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم على لسانه (عليه السلام) : "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ"[3].

٥- الأخذ بالأسباب ، فنجمع بين الدعاء والدواء ، ويكون الدعاء وسيلتنا في التضرع إلى الله (عز وجل) أن يعمل خاصية

---

(١) سنن ابن ماجه ، أَبْوَابُ الْأَدَبِ ، بَابُ الِاسْتِغْفَارِ، حديث رقم ٣٨١٩.

(٢) الأنعام : ٤٣ .

(٣) الأنبياء : ٨٣-٨٤ .

الدواء في إزالة الداء ، فهو سبحانه القادر على ذلك دون سواه ، فالطبيب سبب والشافي هو من أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، حيث يقول سبحانه:" إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"[1].

* * *

(١) يس : ٨٢ .

إطعام الطعام

الإسلام دين الإنسانية ، دين الرقي ، دين التراحم ، دين التكافل ، حيث جعل من قضاء الحوائج الأساسية للإنسان منهجًا ثابتًا ، وفي مقدمتها أساسيات ومقومات الحياة التي يُعدُّ إطعام الطعام في القلب منها ، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ"[1] .

(١) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ ، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الحَوْضِ ، بعد ستة وعشرين بابًا منه ، حديث رقم ٢٤٨٥ ، وسنن ابن ماجه ، أَبْوَابُ الْأَطْعِمَةِ ، بَابُ إِطْعَامِ الطَّعَامِ ، حديث رقم ٣٢٥١.

فقد ذكر نبينا (صلى الله عليه وسلم) في الحديث أربعة أسباب لدخول الجنة : ثلاثة منها تتعلق بالجوانب الإنسانية ، وهي: إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وواحدة منها تتعلق بعلاقة العبد بخالقه ، وهي الصلاة بالليل والناس نيام .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: " لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (1) ، ويقول سبحانه: "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله

(١) البقرة : ١٧٧.

لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا"[1]، ويقول سبحانه:"فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"[2].

وليس المقصود بإطعام الطعام حصر الأمر في عين الطعام ، وإنما الأمر أوسع من ذلك بما يشمل الإطعام المباشر والإطعام غير المباشر ، سواء بإعطاء الفقير مما يقوم بطبخه ، وطهيه بمعرفته ، أم بإعطائه النقد ليشتري ما يحتاج إليه أو تشتهيه نفسه من الطعام ، إنما يشمل ذلك كل ما تعنيه كلمة الطعام من معان ، سواء أكان إطعامًا مباشرًا في صورة وجبات مجهزة تقدم أو تعطى للفقراء والمحتاجين أو تهدى للأصدقاء والجيران والمقربين ، أم في صورة عينية سلعًا أو نقدًا ، والنقد أنفع للفقير وأستر له ، وأوسع لخياراته وقضاء حوائجه .

---

(١) الإنسان : ٨ ، ٩ .

(٢) البلد : ١١ - ١٦ .

ذلك مع عظم الثواب المترتب على الإنفاق في سبيل الله ، حيث يقول الحق سبحانه :"وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"(١)، ويقول سبحانه: " قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (٢)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا"(٣).

* * *

(١) البقرة : ٢٦٥ .

(٢) سبأ : ٣٩ .

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري ، كِتَاب الزكاة ، بَابُ قَوْلِ الله تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٦] ، حديث ١٤٤٣. وصحيح مسلم ، كِتَابُ الزكاة ، بَابٌ فِي الْمُنْفِقِ وَالْمُمْسِكِ ، حديث رقم ١٠١٠ .

عمارة المساجد
تعظيم لشعائر الله

يقول الحق سبحانه : "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ"[1] ، ويقول سبحانه: "فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ"[2].

فللمساجد مكانتها وحرمتها وقدسيتها ، يقول الحق سبحانه : "وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلَا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا " [3]، فهي بيوته التي ينبغي تعظيم حرمتها ، حيث يقول سبحانه : " وَمَنْ

---

(١) التوبة : ١٨.

(٢) النور : ٣٦.

(٣) الجن : ١٨ .

يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ"[1] .

ولا شك أن الحفاظ على نظافة المساجد ، أو الإسهام في نظافتها ، وحرص العاملين بها على نظافتها الدائمة وبذل أقصى ما في وسعهم لذلك ، هو من باب تعظيم حرمات الله ، وتعظيم شعائره ، يقول الحق سبحانه : " وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ " [2].

فخدمة بيوت الله (عز وجل) شرف ، وإذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيما أقامك ، فجدد النية وشمر عن ساعد الجد في خدمة بيوت الله (عز وجل)، وحول الوظيفة إلى رسالة، لا تدخر في ذلك جهدًا ولا وسعًا ، وإذا كان الأجر على خدمة بيوت الله (عز وجل) أجرًا عظيمًا تحفُّهُ البركة في الدنيا

---

(١) الحج : ٣٠ .

(٢) الحج : ٣٢ .

والرحمة في الآخرة ، فإن التقصير في المهام الواجب القيام بها وخيم العاقبة على المقصرين في ذلك من المكلفين به ، ومن ثمة وجب التفاني في العمل مِن كلِّ مَن شرفه الله (عز وجل) بخدمة بيوته .

ومن تمام الحفاظ على نظافة المساجد أن نأتيها في أحسن وأكمل وأتم وجوه النظافة والطهارة والبهاء والنقاء ظاهرًا وباطنًا ؛ استجابة لقول الله (عز وجل) : " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ"[1].

وقد أثنى رب العزة في كتابه العزيز على المتطهرين من عمار بيوته وغيرهم ؛ فقال سبحانه وتعالى مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ"[2]، وقال

---

(١) الأعراف : ٣١ .

(٢) التوبة : ١٠٨ .

سبحانه : " إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ "[1]، ويقول سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ "[2]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ" [3].

ولم يُعن الإسلام بمجرد النظافة بل حث على الكمال فيها ، فعد نبينا (صلى الله عليه وسلم) إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع الله به الدرجات ويحط به الخطايا، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟" قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ

(١) البقرة : ٢٢٢ .

(٢) المدثر : ١-٤ .

(٣) صحيح مسلم ، كِتَابُ الطهارة ، بَابُ فَضْلِ الْوُضُوءِ ، حديث رقم ٢٢٣ .

الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ"[1]، كما حثنا (صلى الله عليه وسلم) على الاغتسال في مواطن عديدة ، وبخاصة عند الجمع والجماعات ، كغسل الجمعة وغسل العيدين وغيرهما ، تأكيدًا على نظافة الجسد وطهارته طهارة تامة .

وعني ديننا الحنيف بتكريم من يقومون بخدمة المجتمع ولا سيما في مجال النظافة، فقد كانت امرأة تَقُمُّ الْمسجد - أي تنظفه - ففقدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسأل عنها، فقالوا: ماتت ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "أَفلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي"[2] ، فدلُّوه على قبرها فصلى عليها النبي (صلى الله

(١) صحيح مسلم ، كِتَابُ الطهارة ، بَابُ فَضْلِ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، حديث رقم ٤١ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كِتَاب الصلاة ، بَابُ كَنْسِ المَسْجِدِ وَالتِقَاطِ الخِرَقِ وَالقَذَى وَالعِيدَانِ ، حديث رقم ٤٥٨. صحيح مسلم ، كِتَابُ الجنائز ، بَابُ الصَّلَاةِ عَلَى الْقَبْرِ ، حديث رقم ٩٥٦ .

عليه وسلم) إكرامًا لخدمتها لبيت الله (عز وجل) وحرصها الشديد على تنظيفه .

❊ ❊ ❊

زواج القاصرات ظلم لهن وللمجتمع

إن الشرع الحنيف قائم على مراعاة مصالح البلاد والعباد، فحيث تكون المصلحة المعتبرة فثمة شرع الله .

وإذا كان العرف ضابطًا معتبرًا لدى الفقهاء فإن العرف لا يقصد به العرف الخاص لكل قبيلة ، أو عزبة ، أو قرية ، أو نجع ، أو تجمع على حدة ، إنما هو العرف العام الذي تعارف عليه القوم وإن لم يسنوه قانونًا ، فما بالكم إذا تعارف عليه القوم وسنوه قانونًا أو أقرته مجالسهم النيابية في ضوء الدستور الذي اصطلحوا عليه وارتضوه لتسيير شئون حياتهم وتنظيم حركتها، ناهيك عما قرره الشرع من حق الحاكم في تقييد المباح للمصلحة المعتبرة بما لا يتعارض مع نص صريح قطعي الثبوت والدلالة.

والقضية التي نحن بصددها واحدة من القضايا الحياتية التي لم يرد في بيان تحديد سن الزواج فيها نص قاطع ، لا من

صريح القرآن ولا من صحيح السنة ، فصار فيها متسع للاجتهاد والرأي والرأي الآخر وفق ما تقتضيه المصلحة ، على أن فقه الموازنات وحسابات المصالح والمفاسد ، وترجيح ما يجب ترجيحه منها يتطلب منا نظرات متأنية لا نظرة واحدة قبل أن نصدر أي فتاوى في هذا الشأن ، بل أرى أن أمر الفتاوى في مثل هذه القضايا يحتاج اجتهادًا جماعيًّا للمؤسسات المعتبرة لا اجتهاد الأشخاص أو الأفراد ، ولا سيما إذا كان بعض هؤلاء الأشخاص أو الأفراد بمعزل عن استيعاب قضايا العصر ومستجداته ، فما بالك إذا كانوا أو كان بعضهم بمعزل عن قواعد الإفتاء وأصوله أصلًا؟ بل فما بالكم إن كان من يفتي في الشأن العام من غير المتخصصين ، أو حتى من غير الدارسين للأصول الشرعية على وجهها المطلوب إن لم يكن من غير الدارسين لها أصلاً.

ولا شك أن إصدار مثل هذه الفتاوى لا يمكن أن تستند

فقط إلى محصولنا مما قرره بعض الفقهاء في عصور وظروف وبيئات تغيرت طبيعتها تغييرًا كبيرًا في زماننا ومكاننا وبيئتنا ، وأصبح من يتصدر للإفتاء في مثل هذه الأمور والقضايا المعاصرة في حاجة ملحة إلى أن يلم إلى جانب أصول وقواعد فقه الأحكام بفقه العصر والواقع ومستجداته وتداعياته وتحدياته وظروفه الاجتماعية والاقتصادية والصحية ؛ بما يتطلب ضرورة الاستئناس بآراء الخبراء المختصين من الأطباء وعلماء النفس والاجتماع ، بل إننا قد نكون بحاجة ماسة لنظرة أوسع نحو ما يدور حولنا في مختلف دول العالم والتزامات الدول وتعهداتها في ضوء ما وقعت عليه من مواثيق دولية ؛ لأن الاستطاعة كما ينظر فيها إلى حال الأفراد ينبغي أن ينظر فيها أيضًا إلى أحوال وقدرات الدول.

وإذا كان الفقهاء قد تحدثوا عن الباءة وهي القدرة على الوفاء بحق الزواج فإن الأمر بلا شك لا يمكن أن يحصر أو

يقصر في القدرة والطاقة الجنسية ، إنما هو القدرة العامة على قيادة سفينة الحياة الزوجية بما تقتضيه وتتطلبه من تبعات اقتصادية ومسئوليات اجتماعية نظلم أبناءنا وبناتنا ظلمًا كبيرًا إن حملناهم إياها دون احتمالهم لها أو قدرتهم على هذا الاحتمال أو حتى مجرد إدراكهم لما يقتضيه واجب كل من الزوجين تجاه الآخر من حقوق وواجبات ومسئوليات ، وما لم نهيئ لهم ما يغلب على الظن معه على أقل تقدير نجاح هذا الارتباط ، وإلا فما سر حالات الطلاق المرتفعة بين الشباب المتزوجين حديثًا إن لم يكن عدم تأهيلهم وتهيئتهم بالقدر الكافي وإدراك كل منهم لما تتطلبه وتقتضيه حقوق بناء الأسرة السوية كأساس لبناء مجتمع سوي متماسك قادر على صنع الحضارة واقتحام عباب الحياة الصعبة.

ولا شك أن الزواج مسئولية كبيرة ، وميثاق غليظ ، شرعه الإسلام ليسكن كل من الزوجين إلى بعضهما البعض في مودة

ورحمة ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[1] ، فلابد من التأكد من أن كلاً من الرجل والمرأة في سن قادر على تحمل أعباء وتبعات هذه العلاقة الزوجية سواء في مسئولية كل منهما تجاه الآخر أم في تحملهما معًا واجبهما تجاه ما قد يرزقان به من الولد .

والذي لا شك فيه أن زواج القاصرات ظلم لهن ، ولما قد ينتج عن هذا الزواج من أبناء ، وظلم للمجتمع بما يترتب على هذا الزواج من آثار وتبعات اجتماعية ، فضلًا عما يترتب على زواج القاصر من آثار نفسية وصحية على الفتاة .

* * *

(١) الروم : ٢١ .

أبجديات الحوار

يقول الحق سبحانه : " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "[1] ، ويقول سبحانه: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "[2] ، ويقول سبحانه : "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا الله وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"[3] .

الحوار على زنة فِعال ، والمحاورة على زنة مُفاعلة، يقتضيان المشاركة ، ولا يقعان من طرف واحد، يقال: تحاور محمد وعلي،

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) العنكبوت : ٤٦ .

(٣) آل عمران : ٦٤ .

أو توافقا ، أو تشاركا ، أو تطاوعا ، أي حاور ، أو وافق ، أو شارك ، أو طاوع كل منهما صاحبه ، ولا يُتصوَّر أن يحاور الإنسان نفسه .

وعليه فالحوار يقتضي أن تُعامل الآخر بما تحب أن يُعاملك به ، وأن تنصت إليه قدر ما تحب أن ينصت إليك ، وأن تأخذ إليه الخطوات التي تنتظر منه أن يخطوها نحوك ، وإلا فحاور نفسك ، واسمع صوت نفسك ، ولا تنتظر أن يسمع الآخرون صوتك.

الحوار الناجح هو القائم على الحق ، المبني على الصدق ، لا على الكذب ، ولا التزييف ، ولا السفسطة ، ولا المغالطة ، ولا مجرد المغالبة لذات المغالبة.

فالحوار لا يعني الشقاق ، ولا يمت للعصبية العمياء بصلة، ولا يجعل من المتغيرات ثوابت ، ولا يقدس غير المقدس، ولا يرمي الناس بالإفك والبهتان ، ولا يخرج عن الموضوعية إلى

غيرها قصد إحراج المحاوَر ، أو إسكات صوته بالباطل ، كأن يحاور شخص شخصًا آخر في قضية فكرية فإذا هو يتحول إلى هجوم شخصي عليه ، أو على أسرته ، أو قبيلته ، أو حزبه ، أو دولته ، عجزًا منه عن مقارعة الحجة بالحجة ، وهروبًا من الموضوعية التي لا قِبَل له بها إلى السباب والفحش الذي قد لا يجيد غيرهما.

كل ذلك شيء والحوار شيء آخر ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى لسيدنا موسى وهارون (عليهما السلام) : "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى"[1]، فأمرهما الحق سبحانه وتعالى أن يقابلا طغيان فرعون بالحكمة والموعظة الحسنة ، والقول اللين الحسن ، وألا يقابلا طغيان جبروته بمثل فعله أو لغته.

وانظر إلى أدب أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في

---

(١) طه : ٤٣-٤٤ .

محاورته لأبيه ، حيث يقول أبوه : "لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا"[1]، فيجيبه سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في غاية البر والأدب : "سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا"[2] ، وفي الحوار الذي دار بينه وبين نمرود بن كنعان كما حكى القرآن الكريم على لسانه : "قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ "[3] ، وهنا لم يرد عليه سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بالنفي المباشر ، إنما انتقل إلى أمر آخر قائلاً : "فَإِنَّ الله يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ" وكأنه يقول له : إن كنت تحيي وتميت حقًا كما تقول فأت بالشمس من المغرب بدل المشرق ، فبهت الذي كفر.

---

(١) مريم : ٤٦ .

(٢) مريم : ٤٧ .

(٣) البقرة : ٢٥٨ .

وهذا نبي الله سيدنا عيسى (عليه السلام) ينتقي ألفاظه انتقاءً فيقول : "إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ" [1] ولم يقل: لم أقله ، تأدبًا مع ربه (عز وجل).

ومن أبجديات الحوار حسن الاستماع للآخر ، وعدم مقاطعته ، أو إبداء عدم الرغبة في سماعه ، أو التأفف من كلامه، أو الإشاحة في وجهه ، وإظهار التبرم منه غمزًا ، أو لمزًا، أو سخرية ، أو تهكمًا إشاريًّا ، أو حتى تبسمًا ساخرًا ينم عن عدم تقدير المحاور ، أو إظهار عدم الاقتناع بما يقول تهوينًا لشأنه ، ناهيك عن ارتفاع الصوت واشتداد الصخب والجلبة ، فضلاً عن سوء الأدب في الحوار.

الحوار الهادف ينأى بصاحبه عن كل أشكال الجمود والاستعلاء ، ويحمله على احترام الرأي الآخر وتقديره، على

---

(١) المائدة : ١١٦ .

حد قول الإمام الشافعي (رحمه الله) : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

بل إننا لنذهب أبعد من ذلك فنرى أن كلا الرأيين قد يكونان على صواب ، غير أن أحدهما راجح والآخر مرجوح، فالأقوال الراجحة ليست معصومة ، كما أن الأقوال المرجوحة ليست مهدومة ، طالما أن لصاحبها حظًّا من النظر والحجة والدليل المعتبر.

وإن أخطر ما يعوق الحوار أمران هما : الأدلجة والنفعية؛ فأما الأدلجة فإن العالم أو الكاتب أو المحاور المؤدلج تحمله عصبيته العمياء للجماعة التي ينتمي إليها إما على عدم رؤية الحق ، وإما على التعامي عنه ، إذ يمكن لأحدهم أن يحاورك أو يجادلك أو يقبل نقاشك في مفهوم آية من كتاب الله (عز وجل) أو حديث صحيح من سنة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) ، ولا يقبل منك أن تحاوره أو تناقشه أو تراجعه في كلام مرشده المقدس لديه.

وأما النفعيون والمتاجرون بالأديان والقيم والمبادئ فلا يدافعون أبدًا عن الحق، ولا ينتظر منهم ذلك ، إنما يدافعون عن مصالحهم ومنافعهم فحسب ولا شيء آخر.

وبما أن الجزاء في الدنيا والآخرة من جنس العمل ، لقي سيدنا إبراهيم (عليه السلام) من أدب ولده إسماعيل (عليه السلام) ما فاق أدبه هو مع أبيه ، على نحو ما صوره لنا القرآن الكريم في سورة "الصآفات" ، حيث دعا سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ربه أن يرزقه الولد الصالح فَمنَّ عليه الحق سبحانه وتعالى بسيدنا إسماعيل (عليه السلام) ، ثم بشره بسيدنا إسحاق ، وفي شأن ولده إسماعيل (عليه السلام) يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) : " رَبِّ هَبْ

لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ"[1].

ونلاحظ أن سيدنا إسماعيل (عليه السلام) قد خاطب والده بنفس اللفظ والأدب الذي خاطب به سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أباه " يَا أَبَتِ" ، فهمًا كما قال الحق سبحانه : "ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ" [2]، وفي الأثر : افعل ما شِئتَ كما تَدينُ تُدانُ .

* * *

---

(١) الصافات : ١٠٠ – ١٠٢ .

(٢) آل عمران : ٣٤ .

فهـــرس الموضوعات

❊ ❊ ❊